(NEC)
BP188
.9
.H355
1947

٤ — التصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٤	يأنيه	يأتيه
١٥	٠٨	إياهم	إياهم
٢٧	١٨	أعمال الجوارح بعض وبعض	بعض أعمال الجوارح وبعض
٣٠	٠٧	الفنوسية	الغنوسية
٣٢	١٥	المحقوظ	المحقوظة
٣٢	١٤	الهندسى	الهندى
٣٧	٠٣	والنقس	والنفس
٣٧	١٧	لى	إلى
٦٣	٠٢	ينفى	يتقى
٦٤	٠٢	قتى	فتى
٦٩	١١	فبلل	فبلغ
٧٥	٠٩	بلع	بلغ
٧٩	٠٢	يهض	يهض
٨١	١٤	فبقفون	فيقفون
١٠٦	٠٩	فأستغفر	فأستغفر
١١١	٠٥	حرق	خرق
١١٨	٠٥	فحينئذ	فحينئذ
١٣٠	١٧	إلا بذكر	ألا بذكر
١٤٠	٠٨	فرات من	فرات بن
١٤١	٠٧	وسائر	وسائر
١٤٢	٠٧	لى	إلى
١٤٣	٠١	فأحيبناه	فأحييناه

نوح : ٦٦ ـ ٧٦ .
نيكولسون : ٢٣ .
الهجويرى : ١٤ ـ ٢١ ـ ٢٣ ـ ٢٧
هرتمان : Hartmann : ٥ .
هشام : ١١٣ .
ونسنك : Wensinck : ٥ .
وهب بن منبه : ١١٩ .
ياقوت : ٤ .
يحيى بن معاذ : ٦ .
يحيى بن منصور : ٩ .
يحيى بن موسى : ٩ .
يزيد بن المهاب : ٤ .
يزيد بن هرون : ١١٣ .
يعقوب (عليه السلام) : ١٠٤ .
يعقوب الدورقى : ٩ .
يوسف (عليه السلام) : ١٠٤ ـ ١٤٧
يوسف بن عطية : ٦٩ ـ ٧٠ ـ ١٢٧

٣ — فهرس المواضع

إستانبول : ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ٢٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ .
باريس : ١٣ ـ ١٤ .
برلين : ١٤ .
بكترا : ٧ .
بلاد الصين : ٧ .
بلاد الفرس : ٤ ـ ٧ .
بلاد الهند : ٧ .
بلخ : ٦ ـ ٧ ـ ١١ ـ ١٥ .
بوغ : ٥ .
بيروت : ٢٤ .
تركستان : ٥ ـ ١١ .
ترمذ : ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٧ ـ ١١ ـ ١٥ .
جيحون : ٣ ـ ٤ .
حمص : ١١٤ .
ختلان : ٤ .
خراسان : ٥ ـ ٦ ـ ٩ .
دمشق : ١٣ .
الرى : ١٣ .
سرخس : ١٤ .
سمرقند : ٦ ـ ١٢٠ .
الشام : ١١٩ .
شغانيان : ٤ .
الصغانيان : ٤ .
طورسينا : ٧١ .
العراق : ٩ .
القاهرة : ١٤ ـ ٣٤ .
لندن : ٣١ ـ ٣٢ .
ليبزج : ١٣ ـ ١٤ .
ليدن : ١٣ .
مانشستر : ١٣ .
ماوراء النهر : ٣ .
المدينة : ٧٢ .
مرو : ٦ .
مصر : ٦ ـ ١١٩ .
نيسابور : ٩ ـ ١١ .
اليمن : ١١٦ .

عمار بن منصور : ١٢٦ .
عمير بن عبد الله : ١٠٤ .
عيسى (عليه السلام) : ١١٩ — ١٢٠ — ١٢٦ — ١٣٩ .
عيسى بن يونس : ١٠١ .
الفارابى : ٣٠ .
فرات بن حباب : ١٤٠ .
فرعون : ١٥٨ .
فريد الدين العطار : ٧ — ٩ — ١٠ .
الفضل بن محمد : ٩ — ٨١ — ١٤٠ .
الفضيل بن عياض : ٦ .
القاسم العمرى : ١٣٤ .
قتيبة : ١٥٠ .
قتيبة بن سعيد : ٩ — ٧١ .
قتيبة بن مسلم : ٤ .
القشيرى : ٦ — ٨ — ١٠ — ١٢ — ٢٧
قيس بن أبى خازم : ١١٣ .
لقمان (عليه السلام) : ١١٢ .
ليث : ٥٨ .
ماسنيون Masaignon : ٢٠ — ٢٩ — ٣٠ .
مالك بن دينار : ٥٦ — ١٠٣ — ١١٤ — ١٥٥ .
محارب بن دثار : ١٤٠ .
محمد (صلى الله عليه وسلم) : ١٣ — ١٦ — ١٧ — ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٤٤ — ٤٨ — ٥٥ — ٥٩ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢ — ٧٤ — ٧٥ — ٧٩ — ٨٠ — ٨١ — ٨٢ — ٨٨ — ٩٠ — ٩١ — ٩٦ — ١٠٠ — ١٠١ — ١٠٢ — ١٠٦ — ١١٠ — ١١١ — ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ — ١١٦ — ١٢٤ — ١٢٥ — ١٢٦ — ١٢٧ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٣٧ — ١٣٩ — ١٤٠ — ١٤٣ — ١٤٥ — ١٤٧ — ١٥٠ — ١٥١ — ١٦٠ .
محمد بن الحسن المكى : ٧٠ .
محمد بن الحسين : ١٥ — ٢٦ .
محمد بن سهل : ٩ — ١٢٦ .
محمد بن عيسى : ٥ .
محمد بن الفضل : ١٤ .
محمد بن منير : ١٥٠ .
محمد بن واسع : ١١٨ .
محمد الوراق : ٨ — ٣٠ .
محيى الدين بن عربى : ١٤ — ١٥ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ .
مصطفى البابى الحلبى : ٣٢ — ٣٤ .
معروف الكرخى : ٦ .
المغيرة : ١١٣ .
المفضل بن المهلب : ٤ .
منصور بن عمار : ٦ .
منورسكى : Minorsky : ٤ .
موسى (عليه السلام) : ١٩ — ٧٢ — ٧٩ — .
موسى بن عبد الله : ٤ .
ميكائيل : ٨٢ .
نافع : ٨١ — ١٥٠ .
النعمان بن بشير : ٧١ .
نمرود : ١٥٨ .
نهار بن توسعة : ٤ .

سفيان بن وكيع : ٩ ـ ٧١ ـ ١١٣ .
سفيان الثورى : ٩٩ .
سلمان : ١٣٩ .
سليمان (عليه السلام) : ١٩ ـ ٢٤ ـ ٥٦ .
سهل بن تمام : ١٢٦ .
سهل بن على : ٤٧ .
سوار : ١٤٠ .
سيار : ١١٤ ـ ١٥٥ .
شريح بن عبيد : ١١٢ .
شستر بيتى : ١٣ ـ ١٤ ـ ٣١ ـ ٣٢
شقيق البلخى : ٦ ـ ٩١ .
شهر بن حوشب : ١٠٢ .
صالح بن عبد الله : ٩ ـ ٥٨ .
صالح بن محمد : ٩ ـ ١٢٦ ـ ١٣٤ .
صالح المرى : ١٠٢ .
ضمضم بن زرعة : ١١٢ .
عائشة : ١١٠ .
عاشر : ٣١ .
عاصم بن عبد الله : ١٣٤ .
عامر بن عبد قيس : ٤٨ ـ ١١٤ ـ ١١٨ .
عباد بن يعقوب : ٩ .
عبد الجبار بن العلاء : ٩ ـ ٦٩ ـ ١١٣ ـ ١٢٧ .
عبد الرحمن بن ميمون : ١١٠ .
عبد الرحيم : ١٠٣ .
عبد العزيز بن أبى رواد : ٧٠ـ١٥٠
عبد الغفار بن ميمون : ٨١ .
عبد الكريم بن عبد الله : ٩ـ١١٤ .
عبد الله : ١١٤ .
عبد الله بن أبى زياد : ٩ ـ ١١٤ ـ ١٥٥ .
عبد الله بن الأشعث : ١٤٠ .
عبد الله بن زيد : ١١٢ .
عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٥٨ ـ ٨١ ـ ٨٤ ـ ١٤٣ ـ ١٥٠ .
عبد الله بن عمر الرقى: ٨١ .
عبد الله بن مسعود : ٩١ .
عبد الله بن نافع : ١٣٧ .
عبد الملك الجزرى : ٨١ .
عبد الواحد بن حمزة : ١١٠ .
عبد الواحد بن يزيد : ١٢٦ .
عبد الوهاب الثقفى : ٧١ .
عبيد بن عمير : ١٠٣ .
عتبة بن عبد الله : ٩ .
عثمان بن مسعود : ٤ .
عروة : ١١٠ ـ ١١٣ .
عسكر بن حصين : ١٠ .
عفيفى : ٢١ .
على : ١٠٤ .
على بن أبى طالب : ١١٢ ـ ١١٣ .
على بن حجر : ٩ .
على بن الحسن : ١١٤ .
على حسن عبد القادر : ٣٢ .
عمر : ١٢٦ .
عمر بن أبى عمر : ٩ ـ ١١٢ .
عمر بن الخطاب : ٢٤ ـ ٤٤ ـ ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ ـ ١٢٠ ـ ١٣٤ .
عمر بن عبيد : ١١٢ .
عمر بن منصور : ١٢٦ .
عمر مولى غفرة : ١٠١ .

أويس القرنى : ١٤٠ .
بارتولد : Barthold : ٤ — ١١ .
البخارى : ٥ .
بديل العقيلى : ٩٩ .
بروكلمان. BrocKelmann : ٥—١١
بشر الحافى : ٦ .
بوسلافسكى : ١١ .
الترمذى (المؤلف) : ٣ — ٦ — ٧ — ٩—١٠ — ١١ — ١٢— ١٣ — ١٤ — ١٥ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ — ٢٧ — ٢٩ — ٣٠—٣١—٣٣— ٣٤ — ٨٩ — ٩٠ .
التهانوى : ٢٦ .
تيمور : ١١ .
ثابت البنانى : ٦٩ — ١٥٠ .
الجارود بن معاذ : ٩ —٩١ — ١٠٤— ١١٣ .
جب : ١١ .
جبريل (عليه السلام) : ٧٢ — ٧٦ — ٨٢ — ٨٤ — ١٠٢ — ١١٠—١٥٠
جرير : ٥٨ .
جعفر بن سليمان : ١٥٥ .
جندل بن واثق : ٨١ .
الجنيد : ٦ — ١٢ — ١٣ .
حاتم الأصم : ٦ .
حاجى خليفة : ١٥ .
حارثة : ٦٩ —٧٠ — ١٠٦—١٢٧— ١٢٨ — ١٣٣ — ١٥٠ — ١٥١ .
الحارث المحاسبى : ٦ — ١٢ — ٢٣ .
حافظ آبرو : ٤ .
حبيب العجمى : ١٠٢ — ١٠٣ .
حبيب الفاريانى : ١٠٣ .
الحجاج بن فرافصة : ٩٩ .
الحسن : ١٢٦ .
الحسن البصرى : ١٣٩ — ١٤٠—١٤٣
الحسن بن على : ٩ .
الحسن بن عمر : ٩ .
حفص بن سليمان : ١١٤ .
حماد بن سلمة : ١١٣ .
حواء : ٥٩ — ٧٦ .
خالد بن أبى معدان : ١١٤ .
خالد بن الوليد : ١١٣ .
خالد الحذاء : ٧١ .
الخزرجى : ٦٩ .
الخضر (عليه السلام) : ٨ — ١١١ .
دارا شيكوه Dara ShiKuh : ١١
داود (عليه السلام) : ٦٦ — ١٣٥— ١٤٧ .
داود بن نصير : ٦ .
الذهبى : ٣ — ٩ — ١٠ — ١١ .
ذو النون المصرى : ٦ .
راشد بن أبى راشد : ١١٤ .
الربيع بن روح : ١١٢ .
زريق بن الورد : ٨١ .
الزمخشرى : ١٠٧ .
زهير بن حرب : ١٤٠ .
السبكى : ٣ — ٩ — ١١ — ١٥ .
السدى : ١٤٣ .
السرى السقطى : ٦ .
سعد بن معاذ : ١١٤ .

٢ — فهرس الأعلام

آدم (عليه السلام) ١٦ — ١٩ — ٣٧ — ٤٠ — ٥٩ — ٦٨ — ٧٥ — ٧٦ — ٨٤ ٩٢ — ١٣٧ — ١٥٦ .
إبراهيم بن أدهم : ٦ .
إبراهيم بن محمد (ص) : ١٠٤ .
إبراهيم بن المستمر : ٩ — ١١٠ .
إبليس : ٣ — ٤٢ — ٥٠ — ٧٥ — ٧٦ — ٧٧ .
ابن أبي حبيش : ١٥٠ .
ابن أبي نجيح : ٥٨ .
ابن التستري : ٣٠ .
ابن جريج : ١٣٧ .
ابن خلدون : ٢٤ .
ابن عباس : ٨٠ — ١٠٠ — ١١٠ — ١١١ — ١٢٦ — ١٣٧ — ٢٤٣ .
ابن عثمان سعيد : ١٤ .
ابن عون بن أبي راشد : ١٢٦ .
ابن عياش : ١١٢ .
ابن كرام : ٣٠ .
ابن المبارك : ٩٩ — ١٠٢ — ١٠٣ .
ابن مهدي : ١٤٠ .
أبو بكر بن أبي مريم : ١١٤ .
أبو بكر بن سابق ٩ — ١١٢ .
أبو بكر الصديق : ١١٣ .
أبو بكر الكلابذي : ٢٧ .
أبو تراب النخشبي : ٦ .
أبو الحسن النوري : ٢٣ .
أبو داود السجستاني : ٥ .
أبو ذر : ١٠٢ .
أبو سليمان الدارانى : ٦ .
أبو صالح : ١٤٣ .
أبو عامر العقدى : ١١٠ .
أبو الفرج بن الجوزى : ٣ .
أبو قلابة : ٧١ .
أبو كبشة : ٨٠ .
أبو مالك : ١٤٣ .
أبو معاوية : ٩١ .
أبو مقاتل : ١٢٦ .
أبو المنذر القطعى : ١١٠ .
أبو نصر السراج : ٢٦ .
أبو نعيم الأصبهانى : ٣ — ١٠ .
أبو يزيد البسطامى : ٦ .
أحمد بن أبي الحوارى : ٦ .
أحمد بن حنبل : ٥ .
أحمد بن خضرويه : ٦ — ١٠ .
أحمد بن يحيى : ١٠ .
أربرى : ٢٧ — ٣٢ .
أسباط : ١٤٣ .
إسحاق بن أبي فروة : ٨١ .
إسرافيل : ٨٢ .
الإسكندر الأكبر : ٤ .
أسلم بن سالم : ٨١ .
إسماعيل بن أبي خالد : ١١٣ .
إسماعيل بن شيبة : ١٣٧ .
إسماعيل بن عياش : ١٠١ .
إسماعيل بن نصر : ٩ — ١١٠ .
الأعمش : ٩١ — ١١٢ .
أنس بن مالك : ٦٨ — ٦٩ — ١٢٧ — ١٥٠ .

مطلب الإحسان ٧٢
أصناف العمال ٧٣
إجمال فى انقضاء الفرح
فى السير إلى الله ٧٦
مطلب النيات ٨٢
ابن آدم مطبوع على سبع ٨٥
وصف رياضة النفس ٨٦

أدب النفس

إنشاء الخلق لإظهار الربوبية ٩٠
دعوة الخلق إلى التوحيد ٩١
الهوى والشهوات ٩٢
الإيمان واليقين فى القلب ٩٣
شأن الرزق ٩٤
رياضة النفس وأثرها فى
قبول أحكام الله ٩٨
مجاهدة النفس ١٠٠
الصابر والراضى ١٠١
فرح الأنبياء وحزنهم ١٠٢
فرح المتقين ١٠٣
كيفية رياضة النفس ١٠٤
اليقين وطهارة القلب ١٠٥
تمثيل رياضة النفس برياضة
البازى والدابة ١٠٦
التقرب إلى الله بالنوافل ١١٠
شأن الخضر ١١١
صقل القلوب ١١٤
صفة القلب ١١٦
الغفلة عن رياضة النفس ١٢٠
منع اللذة والشهوة عن النفس ١٢٢
منع النفس من الطيبات ١٢٤
تحرير القلب من رق النفس ١٢٧
حديث حارثة ١٢٧
ثقة الموقن بأمر الرزق ١٢٩
تأثر القلب بالعلم والموعظة ١٣١
زيادة الإيمان ١٤٠
الغفلة والغلفة ١٤٥
الأمر بالمجاهدة ١٤٧
النصرة ١٥٠
المجاهدة على الحقيقة ١٥٢
ماهية الهوى ١٥٦
ثمرة الهوى ١٥٨
تلخيص ١٥٩

الفهارس

١ — فهرس الموضوعات

مقدمة	
الترمذى وموطنه	٣
المشرق والتصوف الإسلامى	٥
حياة الترمذى	٧
أسلوبه	١٢
مؤلفاته	١٣
الكتب الموجودة	١٣
الكتب المفقودة	١٤
مبادئه	١٥
الإخراج	٣٠
المخطوط أ	٣١
المخطوط ب	٣١
كتاب الرياضة	
أجزاء الإنسان وعمل كل جزء	٣٤
موضع الشهوة	٣٦
موضع الفرح	٣٧
أصل الهوى	٣٨
موضع المعرفة والعقل	٣٩
الكبر فى النفس	٤٠
الاستنطاق للذرية	٤٠
نور التوحيد	٤١
المجاهدة	٤٢
الجوارح السبع	٤٣
سلطان الشهوة وسلطان المعرفة	٤٤
منع النفس من الحلال	٤٥
سلطان القلب على الجوارح	٤٨
الفرح المحمود والمذموم	٤٩
إشراق الأنوار على القلب	٥١
بحث الأكياس عن حال النفس	٥٣
الجوارح السبع أمانة	٥٨
البدء بالصوم	٦١
اتقاء الفرح	٦٣
ورع المؤمن	٦٨
صقل القلب بالأنوار	٧٠
تجلى الله	٧١

فاستقام ، ولم يبق من الهوى والشهوة حركة تميل به ، وتهوى هكذا وهكذا ، عن مشيئات ربه ، وما استنار من قدرته النافذة ، وربوبيته الظاهرة . ومنهم من ضعف عن هذه الأمور ، لم يقدر على رفض الشهوات ، وقطع الهوى ، فما زال مفكرا فى قدرته ، ومعتبرا أمور الله عز وجل بقلب فارغ يريد الخير ، مقبل على الله تعالى بمجهوده ، فكان يزداد بذلك كل يوم يقينا ، وقوة نور فى تلك المعرفة ، حتى غلب نور المعرفة ظلمة الهوى ، فخرقه ومزقه ، وبدّده ، فاستكان لربه فى أموره ؛ ومنهم من كان هكذا فى جهد وطلب ، فأدركته رحمة الله تعالى ، فجذب قلبه جذبة إليه ، فصار من الله بمحل ومكان ، بقطع الهوى ، فصار دكا ، واستنار القلب بما فيه ، وذاقت النفس من حلاوة قرب الله عز وجل مالهت[1] عن جميع شهوات الدنيا ، فصار الهوى والمنية والفرح والسرور درك ما نال من قرب الله عز وجل ، فنجى من هذا ، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تم الكتاب بحمد الله ومنه

---

(١) كذا فى الأصل . والصواب : لهيت به .

مناه ، أن يسمع بذكر أحد غيره يقدر على شيء ، فأراد أن يطمس هذا الذكر ، فأرى أهل مملكته أنى حاربته فقتلته ، بما رجع إليه من السهم المدمى . هذا ثمرة الهوى الذى يهوى بك إلى قضاء الشهوات ، ودرك ماهو من جنسه ، فاحذروه ، فإن الصغيرة الضعيفة منه تقوى حتى تصير كبيرة قوية ، ترمى بك فى أودية المهالك ، والمؤمن أنقذه الله تعالى بالمعرفة من أن يدعى الربوبية ، أو يقصد لمحاربته ، لأن نفسه قد أيقنت ، فأيست عن هذا المعنى ، ولكن تطلب مادون ذلك فى أموره ، فليس هذا له بحقيق ولا خليق .

فقد حصل [1] من جميع ماوصفنا إلى هذه الغاية ، أن ظلمة هذه النفس الشهوانية قد استولت على القلب ، حتى عجز عن حفظ الحدود ، وألا تنهى عما زجرت عنه ، وإيثار ما أمرت به ، وعن أداء الحقوق ، وعن القيام بشكر إلهك ، فحالت تلك الظلمة عن رؤية الوعد والوعيد ، وعن رؤية ربوبيته الظاهرة عليك ، وقدرته النافذة فيك ، وفى الأشياء كلها ، فافترق الناس فى هذا الخطب العظيم فرقتين ، فمنهم من أقبل على الحمية ، ورفض الشهوات ، وآثر التنغيص على جميع لذات النفس ، حتى ذلّ له وانقمع ، فقوى على وثاقه ، ثم قوى على قطعه فقطعه ، فأشرقت شمس معرفته من قلبه ، وهو النور الذى فيه ، فأضاء كل شيء . رأى بذلك النور الربوبية الظاهرة ، والقدرة النافذة ، والسلطان القاهر للأشياء ، وجرى الأشياء كلها على مشيئاته وإرادته ،

---

(١) فى الأصل : ضل .

على مايريد ، لا يخالفه أحد ، فينال لذة جميع مايهوى فيدعوك الهوى ، ويميل بك إلى طلب اللذة ، وقضاء الشهوة ، فإذا خاف أن لا ينال ماأراد ، قهر الخلق كلهم ، وقد علم أسباب القهر ، أنه إنما يكون بأخذ قلوبهم ، أو بخوف فى قلوبهم منه ، لما يرون من عزه ، ونفاذ قوله وأمره ، فلما فهمت النفس أن نوال[1] اللذات والشهوات التى هى النفس ، علمتها فى أخذ قلوب الناس ، إما بمحبة مكتسبة ، أو بتزين عندهم ومدحة ، حتى ينظروا إليك بعين التعظيم ، وإما بعمل يخافونك عليه ، أحببت العز ، واشتهيته وطلبته . فهذا كله إنما حصل منك من أجل نوال[1] الشهوة واللذة التى فى نفسك ، حتى تظفر به ، فما ظفرت به فقد سمنت عليه ، وفرحت وبطرت وأشرت ، ومالم تظفر به طلبت العز ، وهى المنعة ، لتقهر الناس ، وتأخذ بقلوبهم ، حتى لا ترد فى أمر شئته ، أوهويته وأردته .

قال له قائل : فما ثمرة هذا الهوى ؟ قال : ثمرته أن يدعوك إلى أن تدّعى الربوبية ، فمن ههنا ادعى فرعون الربوبية ، حتى يكون نافذ القول فى شهواته ومناه ، جائز الأمر ، دعاه ذلك إلى أن قال : « أنا ربكم الأعلى[2] » . هذه ثمرته ، ومن ههنا ضاق الأمر بنمرود ، حتى احتال للقعود فى التابوت ، ليطير به إلى الخالق الأعلى ، زعم أنى أحارب إله السماء ، لم يحتمل للضيق الذى حلّ به من قوة شهوته ، وإرادة إنفاذ

---

(١) كذا فى الأصل . والنوال العطاء ، والمراد : « نيل » . وهو المصدر .
(٢) سورة ٧٩ ، آية ٢٤ .

الهوى هو عنصره الذى فيه جوهريته الترابية ، فكانت تلك الترابية متشعبة فى النفس ، وهو صفوة غذاء الأم ، والهوى تنفس النفس ، وهو كدورته ، وأصل جوهريته ، وهو مظلم ، وهو قوة غذاء الأم ، لأن التراب مظلم ، وأمك إنما ربتك من اللبن ، ومما أخرجت الأرض ، فلذلك قيل فى الحديث : لكل شىء نفس ، ونفس النفس الهوى ، فما دام الروح فيك ، فأنت كون الروح ، فإذا خرج الروح منك ، صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذرّ عليك التراب ، لأنه لما زال الروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية ، فقد علم شهوات الأرض ولذاتها ، وعرفها بذلك العنصر المنظلم المتشعب . هناك له ميلان ، يهوى إلى جنسه . فسمى هوى ، لأنه تهوى به النفس ، والنفس تهوى بالقلب ، والقلب يهوى بالأركان إلى العقل ، والعقل يهوى بجميع الجسد غدا إلى النار ، فمن ههنا هواك يميل بك إلى نعيم الأرض ، لأنه من جنسه ، وإليه يحنّ ، وله يألف ، فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله تعالى ، كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق اضطربت ، فأسكنت بالجبال الرواسى حتى سكنت . كذلك النفس ، إذا اضطربت فإنما تسكن بالمعرفة ، فكلما كانت معرفتك أعظم وأثقل على القلب ، كانت النفس أسكن ، ومنه قيل : الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى ، فحب المحمدة والرياسة والعلائق والعلو بشهوة العز ، وإنما أحب العز واشتهاه ، لاستدامة نعمة النفس ، لأنه قد علم أنه إذا عز وعلا على الخلق ، أدرك مناه ، وجميع ما للجسد والنفس فيه لذة ، ويكون قد قهر الخلق كلهم ، حتى يكون كله

به حياة ، وقال : إذا فعلت هذا بلغت علم اليقين . فعلم اليقين أن تعبده سبحانه كأنك تراه ، وكذلك وصف الله تعالى علم اليقين فى تنزيله ، فقال : « كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم[1] » ، فأخبر تعالى : أن بعلم اليقين ترى الأشياء « ثم لترونها » : أى غدا ، يعنى الجحيم ، « عين اليقين[2] » . فهذا حق الجهاد ؛ وأما الآخر فإنه رجل أراد مجاهدة نفسه ، فصام أياما ، ثم ترك ، واجتنب بعض الشهوات ، وتناول بعضا ، وحزن مرة ، وفرح أخرى ، وبكى يوما ، وضحك أياما ، وصام وصلى ، وساح مرة هكذا ومرة هكذا ، وحمل على نفسه مؤنا كثيرة ، وأتعب نفسه من طريق أنواع البر ، من سهر الليل ، والحج ، والجهاد ، إلا أن ذلك كله بهواه عمل ، حيث طرب ونشط ، لا بمجاهدة ، فهذا رجل يريد أن تسلم له نفسه وماله ، ويقضى شهواته ومناه ، ويكون مجاهدا ، فهذا غير محقق جهاده ، يعطى ثواب هذا التعب والعناء ، ويؤجر عليه ، ولكن لم يحارب الهوى فى كل موطن حتى يقتله ، فيكون قتيل الله تعالى ، يقبل روحه ، فيحييه ، ويفرحه بنفسه ، فالحرب من عندك ، والنصر من عند الله العزيز الحكيم ، فإذا نصرت قتلت هواك ، وتخلص روحك منه وقلبك ، فقبله وحياه ونوره ، وهداه واجتباه ورعاه .

قال : له قائل : وما الهوى ؟

قال جوهرة النفس ، لأن آدم عليه السلام خلق من تراب ، فكان

---

(١) سورة ١٠٢ ، آية ٥ ، ٦

(٢) سورة ١٠٢ ، آية ٧

قلبه عنده فرح مستبشر حى ؛ فمن ههنا برّز الصدّيق على الشهيد ، لأن الشهيد احتسب بنفسه [١] على الله تعالى مرة واحدة ، حتى قتل ، والصديق يحتسب بنفسه [١] ، فلم يزل يقاتل هواه فى كل حركة حتى قتل الهوي ، فخلص روحه وقلبه من الهوى ، فهذا غاية الصدق ، فسمى صديقا ، لأنه لم يبق فى نفسه منازع ، فصار البدن كله لربه مبذولا بصدق منه ، لامنازعة للهوى فيه ، فكما صار الصديق عنده فى الآخرة حيا مرزوقا ، صار بالصدق هاهنا فى القلب به مرزوقا ، فرحا مستبشرا بما آتاه الله من فضله ، وكما صار الشهيد فى الآخرة بعد أن وصل إلى النعمة يشتهى أن يرد إلى دار الدنيا ، فيقتل فيه [٢] ، فصار منيته كذلك الصديق ماتت شهواته ، فصارت منيته ونهمته فى ذكره وعبادته ، ومنه قوله تعالى فى بعض الكتب : أيها الصديقون ، تنعموا بذكرى ، فإنه لكم فى الدنيا نعيم ، وفى الآخرة جزاء . حدثنا ابن أبى زياد ، قال : حدثنا سيار ، عن جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى ، قال : قرأت فى بعض الكتب : إن سرّك أن تحيا وتبلغ علم اليقين ، فاحتل فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله . أفلا ترى أنه قال : إذا غلبت شهوات الدنيا حييت ، لأن القلب إذا كان فى ظلمة الهوى وغفلته ، كان كالميت ، وليس بالميت ، لأن الميت قلب الكافر ، وقلب الغافل كالميت ، وليس

---

(١) كذا فى الأصل ؛ والباء زائدة .

(٢) كذا فى الأصل .

الجهاد فى طلب الجهاد ؛ والأول رجل متحر للخير ، طالب للثواب . فكذلك جهاد النفس حق جهاده ، أن يصدق اللقاء ، فلا تسلم منه نفس ولا مال ، فإذا أخذ فى المجاهدة خلصت الهموم والأحزان إلى النفس ، وانقطعت اللذات والشهوات ، وتغير اللون ، ونحل الجسم ، وضعف البدن ، وذهب الفرح والتسلط ، واشتغل القلب ، فضعف عن طلب الدنيا ، قد[1] خلص النكص فى المال ، وتعطلت الأمور ، ووجد المكاسب والأرباح ، وأدبرت الدنيا عنه ببهجتها وزينتها ، ولذاتها وعزها ، وبهائها وملكها ، وصافها [2] وخدعها ، وأقبلت الآخرة بحقائقها ، من البكاء والأحزان والاستكانة والصلاة والصيام والذكر والقرآن وأعمال البر ، فشغل عن الأهل والولد ، وعن التلذذ بقربهم ، والأنس بهم ، فصار الولد يتيما ، والأهل كالأرملة ، والمسكن وحشا ، وتعطلت الأوقات التى كان يتلذذ فيها عند الغداء والعشاء ، وتبدل بها جوعا ويبسا ، وبالضحك بكاء ، وبالفرح حزنا ، وبالسرور غموما ، وبالراحة نصبا ، وبالنوم سهرا ، وبالدعة تعبا وضيقا ، وبالغنى فقرا ، وبالعز ذلا ، وبالمدح ذما ، وبالثناء طعنا وعيبا ، فلم تسلم نفس ولا مال ولاجاه ولا قدر إلاذهب كله ، فهذا قتيل الله قد تبددت نفسه وشهواته ومناه ، وصار هواه كالقتيل ، فتخلص روحه عن هواه ، فتقبل الله روحه ، وأحيا قلبه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ووصل بقلبه إلى إلهه ، ففرح واستبشر ،

---

(١) كذا فى الأصل . ولعله : وخلص .

(٢) كذا بالأصل . ولعله : وصفوها .

وتعبه ، وأنه كثر سواد المسلمين وأعانهم ، وشايعهم . ورجل أخذته حمية الإيمان ، فغار لربه ، فخرج يقصد محاربة عدو ربه ، انتقاما وتعظيما على عدوه ؛ أو رجل أيس من نفسه أن يخرج منه خير ينجو به ، ورأى قبح مذاهبه ، وسوء فعاله ، فضاق به الأمر من شراهة نفسه ، وقلة ضبطه لها ، فاغتاظ منها ، وحمى لربه على نفسه ومقتها ، وهاله عظيم خطره[1] منها ، فقدمها إلى العدو لتحارب به ، لعله أن يرزق الشهادة ، فيقتل ويغسل بدمه سائر جسده ، حتى يلقى الله تعالى طاهرا من أقذار المعاصى . فهذا رجل خرج بهذه النية ، أو بتلك النية التى غاربها لربه وحمى له ، وهو أرفع درجة من هذا الذى برم بنفسه ، وأراد التطهر ، فلما لقى أحد هذين العدو ، ونهمته فى عامة مسيره المحاربة ، إما غيرة لربه وحمية ، وإما طلب تطهير لبدنه ، والظفر بالشهادة ، ظهر منه صدق اللقاء ، فبادر وحارب وجاهد ، فلم يلبث أن صار قتيلا ، وبالدماء مزمولا ، وتبددت أعضاؤه من الضرب والطعن ، وتبدد سلاحه هكذا وهكذا من نهبة العدو ، وأخذت دوابه وجميع ماهناك ، وتقبل الله روحه ، فجعله حيا ، يرزقه عنده ، فرحا مستبشرا بما آتاه الله من فضله ، كما وصف تعالى فى تنزيله قصة الشهداء ، فقال : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء[2] » ، إلى آخر الآية ، فصار روحه مقبولا ، وصار عنده حيا فرحا ، مستبشرا مرزوقا ، من غير تعب ولا كد ولا عناء ؛ فهذا حق

---

(١) فى الأصل : خطوه .

(٢) سورة ٣ ، آية ١٦٩ .

قال له قائل : فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة ، إذ قال حق جهاده ؟

فقال : اعتبر مجاهد الظاهر ، وامتثل رجلين : أحدهما سلاحه تام ، وحمل نفقة سنة ، وتجهز بما يحتاج إليه ، ورافق فى الطريق رفقاء ، وتبسط فى مسيره ، وطرب مع رفقائه ، وتلذذ برؤية الكون ولقاء الناس ، وفرح بما نسب إليه من الجهاد والغزو ، فقيل : هذا فلان الغازى ، وطمعت نفسه فى علو المرتبة ، وارتفاع المنزلة عند الناس ، واتخذ الجاه عندهم بذلك ، ونال الكرامة فى مسيره مقبلا ومدبرا ، وقلبه ههنا معلق بحب الدنيا وما خلف فيها ؛ فهذا حاله فى الطريق ، حتى إذا بلغ المنتهى ، فعلى وده أنه لا يلقى عدوا أبدا ، ولا يسمع بذكره ، فهو مقيم هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التى خلفها وراء ظهره ، حتى إذا لقى العدو ، وجاهد مجاهدة مراوغ ليس له صدق القتال ، يريد الروغان[1] والنكص على عقبه ، والهرب ، حتى إذا انقضى الجهاد مرّ منصرفا مسرعا إلى شهواته التى حنّ إليها ، وإلى مأواه الذى قد ألفه ، ووطنه الذى قد استوطنه ، قد سلم بنفسه ، وسلم سلاحه ودوابه وعامة نفقته ، فجاء به كما ذهب به إلا النفقة ، ما أنفق فى مسيره ، وما أنفق أيضا فقد طرب إليه وتلذذ ، وقضى مناه وشهواته بتلك النفقة ؛ فهذا قد سمى فعله هذا جهادا ، فلم يكفر فعله ، بل يعطى ثواب نفقته غدا ، وثواب عنائه

---

(١) فى الأصل : « الروغات » .

وهذا النوع فى الآثار كثير . وإنما أدرك هذا حارثة بمجاهدات النفس ؛ ألا ترى إلى قوله : عزفت نفسى عن شهوات الدنيا ولذاتها . فهذا قطع الهوى ، فإذا قطعه هداه الله طريقه، فإذا نظر صار كأنه يراه بلا كيف ؛ وهكذا وعد فى كتابه ، فقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا[1] » . فإذا هداه طريقه ، لم يبق على قلبه حجاب للشهوة والهوى ، لأنه فتح طريق قلبه إليه ، فحينئذ يمكنه السكون إليه ، ويطمئن القلب ، ويثق بوعده ، ويأتمنه على نفسه ، ألا ترى إلى قول الرسول حيث حكى عنهم ، قالوا : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا[2] » ... الآية . فأخبروا أنهم إنما قدروا على التوكل ، وهو تفويض أمر النفس إليه ، بأنه هداهم لسبيله ، فزال الحجاب ، أعنى الهوى والشهوات عن بصر القلب ، فلم يبق بين يدى قلوبهم شىء يحجبهم ، فصارت الأمور لهم كالمعاينة والمشاهدة . ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وصف القلب ، فقال : أبصر الغيب بالغيب فآمن ، أو كما قال . فهذه نصرة الرب عز وجل .

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة ، فبقيت مخذولا ، مأسورا فى يدي الشهوة والهوى ؛ فإذا صار القلب مأسورا ، فهو كملك مأسور فى يد العدو ، فإذن تعذر عليه الأعوان والجند ، بل يذلون وينهزمون فى الملاهى والأباطيل .

---

(١) سورة ٢٩ ، آيه ٦٩ .

(٢) سورة ١٤ ، آية ١٢ .

كله لله ، والخلق لله ، والقدرة لله ، عوقب بأن يخذل ، وعرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ ، وأنه لا يقدر إلا به ، وقال تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ؛ وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده[1] ؟ »

قال له قائل : فما النصرة ؟ هل يمكن أن توصف ؟

فقال : إن نور المعرفة فى القلب ، حتى يخرج إلى عين القلب ، والهوى قائم على القلب حجابا ، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة ، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد ، فنصرته أن يهديه سبيله ، وهو أن يجعل له طريقا من قلبه إليه ، حتى يصير عين قلبه كأنه يراه من غير كيفية ، وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سأله عن الإحسان ، فقال : أن تعبد الله كأنك تراه . وقال فى حديث آخر : إن أقواما أيقنت قلوبهم ، حتى كأنهم عبدوا الله على رؤية . وقال ابن عمر رضى الله عنهما فى حديث : إنا كنا نتراءى[2] الله تعالى بين أعيننا فى الطواف . حدثنا بذلك قتيبة ، عن محمد بن منير ، عن ابن أبى رواد ، عن نافع ، عن ابن عمر . وقال فى حديث حارثة ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت ؟ قال : مؤمنا حقا . فسأله عن الحقيقة ، فقال : كأنى أنظر إلى ربى على عرشه . هذا فى رواية ، حدثنا أبى ، عن ابن أبى حبيش ، عن عبد العزيز بن أبى رواد . وأما رواية ثابت عن أنس ، فإنه روى : كأنى أنظر إلى عرش ربى .

---

(١) سورة ٣ ، آية ١٦٠ .

(٢) فى الأصل : نترايا .

نصرتكم ، ثم قال : « نعم المولى ونعم النصير[١] » : ينبئك وهو يملك كثرة النصرة ومتابعتها ، فإذا تركت الاعتصام به خذلك ، وخذلانه أن يمنع النصرة ، فإذا منع النصرة ، فجاهدت النفس ، رمتك بسهام الشهوة والهوى ، فرميتها بسهام المعرفة والعقل ، لم تغلبها وغلبتك ، لأن العلم والعقل والمعرفة فى القلب ، والهوى والشهوة خارج من القلب ، قائم بين القلب وبين الرب ، قد أظلم على سمعك وبصير عينى قلبك بغشاوته ، فسجن مافى القلب ، وغلب على القلب ، فصار بمنزلة سراج فى بيت ، والسراج فى الفخار ، وعليها غطاء ، فالبيت مظلم ، فإذا انكشف الغطاء أبصر ما فى البيت ، مما يضر وينفع ، فإذا جاهدت النفس ، فاعتصامك به فى ذلك ، ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به ، واستغناك به هو الذى يغنيك ويعنيك ، فينصرك ، وكيف لا يعينك وقد أمرك بأن تقول : « إياك نعبد وإياك نستعين[٢] » ، فيأمرك بالقول بهذا حتى تسأله ثم لا يجيبك ! وقال تعالى : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء[٣] » ، ثم لا يجيب ولا يكشف ! تعالى الله عن ذلك ، وإذا نسيته فى ذلك الوقت ، منع النصرة ، لتركك ذكره ، ولاقتدارك فى الأمر ، وكيف لا يعاقبك بمنع النصرة وقد نسيته ، واقتدرت فى أمره ، وقد أمرك بأن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فمن اقتدر فى أمره والأمر

---

(١) سورة ٢٢ ، آية ٧٨ .
(٢) سورة ١ ، آية ٤٥ .
(٣) سورة ٢٧ ، آية ٦٢ .

فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين [١] » . فسماه محسنا ، ووعده أن يكون معه ، ومن كان الله معه فهو المنصور لا يغلب ؛ فوعدك على المجاهدة حق جهاده ، أنه هو الذى يلى هدايتك سبيله . هذا ثوابه فى العاجل ، فكيف بثوابه فى الآجل ، إذا قدمت عليه غدا بالمجاهدة ، وبثمرة المجاهدة ، فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة ، وبالهداية نلت ولاية الله تعالى ، وبولاية الله نلت قربة الله وزلفاه . ثم قال تعالى : « هو اجتباكم [٢] » ، أى كما جعلتك من أهل جبايتى ، جعلت لك نورا ، وفتحت عينى قلبك ، وفتحت أذنى قلبك حتى عرفتنى ، فالآن جاهد فى ذاتى هواك وشهوات نفسك ، حتى يظهر انقيادك لأمرى ، ويعز دينى ، وتعلو طاعتى . والمجاهدة على قالب المفاعلة ، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، إلا فى النادر فى الكلام ، فأما العام فإنه من اثنين ، فكأنه قال : « وجاهدوا فى الله حق جهاده » . وقال فى آية أخرى : « واعتصموا بالله » ، أى امتنع من شر النفس وحربها وعداوتها بالله تعالى ، فكأن النفس عدوك ، يرميك بسهم الشهوة ، والهوى يقويها ، وهى مظلمة ، لا تستعين بالله عليك ، وأنت ترميها بسهم المعرفة والعقل ، وتستعين بالله تعالى عليها ، فأنت المنصور ، لأنك بالله تجاهدها ، وهى تجاهدك لا بالله ، فدلك ربك على الاعتصام منها به ، ثم وعدك النصر ، وشجعك على المجاهدة ، فقال : « هو مولاكم » : أى يلى

---

(١) سورة ٢٩ ، آية ٦٩ .

(٢) سورة ٢٢ ، آية ٧٨ .

وعزم عليه ، فهو يتعاصى عليه ، وتستأديه الشهوات التى حرمت عليه ، وتزلزله فى شأن الرزق ، وتوسوس إليه فى نوائبها وأمورها ، على تدبيرها المنكوس ، وجهلها المظلم ، والرب الرحيم الرءوف به ، قد اختار له غير ذلك ، مما هو أرفق به ، وأبر له ، وأزين به وأفضل ، فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضاربه وتدبيره له ، فحديث النفس وسوسة تدبيرها ؛ وخيبته ومنته وأشقته وألهته ، وأظلمت عليه الصدر ، وهى سلاح عدوه الشيطان الرجيم ، بها يخدعك ويوسوس لك ، ويزين لك ، ويعين هواك عليك ، فلذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك . فلما كنت بهذه الحالة وقد ألقيت بيديك إلى الله سلما ، بما جعل فى قلبك ، أمرك بمجاهدته ، فقال تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده[١] » . وأنبأك فى كتابه شأن النفس والهوى ، فى آى كثيرة ، منها ما ذكر عن قول يوسف عليه السلام حيث قال : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى[٢] » . وحيث قال لداود عليه السلام : « إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[٣] » . وقال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى[٤] » ... الآية ، فأمره بالمجاهدة حق المجاهدة ، ثم أيدنا وشجعنا ،

---

(١) سورة ٢٢ ، آية ٧٨ .
(٢) سورة ١٢ ، آية ٥٣ .
(٣) سورة ٣٨ ، آية ٢٦ .
(٤) سورة ٧٩ ، آية ٤٠ ، ٤١ .

وقد نجد مثل هذا كثيرا فى اللغة ، يقال : جبذ وجذب ، وكشر وشكر ، وزرق ورزق ؛ ومجر[١] ومرج ، وحدج وجحد ، وعلم وعمل ، وغرف وغفر ؛ ومثل هذا كثير ، كلاهما مرجعهما إلى معنى واحد ، ولكنهما اشتقا ، فاستعمل هذا فى نوع ، وهذا فى نوع ، والآخر فى نوع ، وإن كان القالب[٢] يختلف على فعل وعفل[٣] ، فإن الاشتقاق من معنى واحد ، وخولف فى القالب للاستعمال فى نوعه ، ليعرف باختلاف القالب نوعه الذى عنى به ؛ وكذلك العفل أيضا مثله ، فقيل كشر إذا تبسم فبدت أسنانه ؛ وإذا بدا لقلبه فرأى نعمه إليه من الأسباب شكر ، لأن النعم قد بدت له ، وكذلك قوله رزق ، هذا[٤] فيما بدا إليه من الأسباب فى مطعمه ومعاشه ، وهذا فيما بدا إليه بالسبق ، فيرزق به ؛ وكذلك يقال في الحربة والمزراق ، فكذلك الغفلة والغلفة ، معناه عندنا أن الغلفة فى وقت الكفر ، والكفر هو الغطاء ، فإذا ذهبت تلك الغلفة ، ورفع الله الغطاء بمجىء النور ، بقيت الغفلة ، وهو الهوى قائما فيما بينه و بين ربه ، وكان للقلب حجابان : حجاب غطي ظلمة الكفر ، فإذا ذهب الغطاء بقى الحجاب الآخر قائما بينه و بين ربه تعالى ، فهو الذى يغفله و ينسيه ، وهى التى تسمى غفلة ؛ فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها ، وتلظى نيران شهواتها ، بين قلب العبد و بين ربه ، بعد أن أسلم له وانقاد ، واعترف وقبل أمره ،

---

(١) فى الأصل : نجر .
(٢) فى الأصل : الغالب . والمراد بالقالب : الميزان الصرفي .
(٣) فى الأصل : فعل .
(٤) فى الأصل : وهذا .

تسليم نفسه إليه ، لأن إيمانه إنما آمن بأنه ربه ، فرقبته له ، وجميع ماملكت يمينه له ، فقد سلم إليه نفسه وملك يمينه ، فهو المسلم ، قال تعالى : « هو سماكم المسلمين من قبل [١] » : أى فى اللوح المحفوظ . « وفى هذا » : يعنى فى القرآن . « ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » : أى إذا جاءت الأنبياء ، فسئلوا عن تبليغ الرسالة ، فادعوا البلاغ ، فأنكرت الأمم ، وقالوا : لم تبلغنا رسلك أمرك ، فنسلم أنفسنا وملك يميننا لك ، ونأتمر بأمرك ، فأنتم أهل تسميتى ، الذين [٢] سميتكم مسلمين ، بأنكم قد سلمتم إلىّ أنفسكم ، فيشهد لكم بذلك الرسول الذى بعثته بالمقام المحمود ، الذى يغبطه الأولون والآخرون ، فبلغنا فى الحديث : « وتشهدون أنتم لرسلى على أممها التى لم تسلم لى نفسها ، فبهذا صرتم شهداء رسلى ، وحجتى على خلقى » .

فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لما حبب إليه الإيمان ، أى وصل إلى حبة قلبه ، وتزين ذلك فى قلبه ، انقاد لربه ، ألقى بيديه إلى ربه سلما ، جاءت النفس بظلمها وظلمتها ، وهى الهوى ، فوقفت بين يدى القلب ، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة ، فقيل غفلة [٣] ، والأول كانت غلفة [٤] ، فلما ذهبت الغلفة [٥] ، حيث جاء النور ، و [٦] بقى الهوى غفلة .

---

(١) سورة ٢٢ ، آية ٧٨

(٢) فى الأصل : « الذى » .

(٣) فى الأصل : غفيلة .

(٤) فى الأصل : غفلة .

(٥) فى الأصل : الغفلة .

(٦) كذا فى الأصل . والواو زائدة .

القول على الكافرين [١] » . فالحى هو المؤمن ، فلما صار قلب هذا العبد منورا بما رحمه الله ، وقسم له فى سابق علمه ، صار القلب بلا غلاف ، وأذن له ربه بالإيمان به ، قال تعالى : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله [٢] » ، فذكر ههنا الإذن للنفس ، ثم ذكر القلب ، فقال : « حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان [٣] » . فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل ، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت ، وبماذا آمنت ؛ فخرج القلب من الغلاف ، كسحابة انقشعت عن شمس ، فاستنار ، وسمع عن الله تعالى ، وأبصر الغيب ، فصار مجتبى من أهل حباية الله تعالى ؛ وذلك قوله عز وجل : « هو اجتباكم [٤] » . وصار موسوما بسمة الله ، وهو ذلك النور الذى أصابه ، فلما أهينت النفس ، وانقادت للقلب ، قبل القلب ماسمع عن الله ، وأبصر بالغيب ، وعقله وعزم عليه ، صار موسوما بسمة الله ظاهرا وباطنا ، فقيل هذا مؤمن ، وهذا مسلم ، لأنه قد آمن ، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله ، ومن أسلم الوجه إليه ، فقد أسلم إليه بكله ، لأن الوجه اسم جامع ؛ ألا ترى أنك تقول فى اللغة للسائرين بين الناس : رأيت وجوها كثيرة ، فدخل فيه البدن كله ، والمؤمن إذا آمن وقبل أمره ، فإنه يعمل على

---

(١) سورة ٣٦ ، آية ٧٠ .
(٢) سورة ١٠ ، آية ١٠٠ .
(٣) سورة ٤٩ ، آية ٧ .
(٤) سورة ٢٢ ، آية ٧٨ .

فقال : « أو من كان ميتا فأحييناه [١] » . أى بذلك النور ؛ وهو قوله : « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس [٢] » . ولا نرى ذلك النور إلا ماجاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فقد علم من يصيبه ومن يخطئه ، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضا وسودا ، ثم استنطقهم يومئذ ، فبلغنا عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : فأقروا له بالربوبية ، طوعا وكرها وتقية ، فذلك قوله تعالى : «وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها [٣] » ، حدثنا بذلك عن ابن عمر ، وعن [٤] أسباط ، عن السدى ، عن أبى صالح ، وأبى مالك ، عن ابن عباس . ثم قال تعالى : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور [٥] » . وقال : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه [٦] » . فلما حيى القلب بذلك النور ، صار سميعا بصيرا ؛ وروى عن الحسن رحمة الله عليه تفسير هذه الآية : « وتنذر به قوما لدا [٧] » . قال : صم آذان القلوب ، وعلى تأويل قوله تعالى عندنا : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون [٨] » . وقال تعالى : « لينذر من كان حيا ويحق

---

(١) سورة ٦ ، آية ١٢٢ .
(٢) سورة ٦ ، آية ١٢٢ .
(٣) سورة ٣ ، آية ٨٣ .
(٤) فى الأصل : وعلى . تحريف .
(٥) سورة ٢٤ ، آية ٤٠ .
(٦) سورة ٣٩ ، آية ٢٢ .
(٧) سورة ١٩ ، آية ٩٧ .
(٨) سورة ٧ ، آية ١٩٨ .

والجهر بالسوء والأذى ، وحرم عليهم الزنا ، لأن فيه الغيرة والأذى بعضا لبعض ، وحرم الخمر ، لأن فيها الأذى وتلف النفس و إهلاكها ، وحرم الربا ، ودل على المواساة والتقارض ، وقال : « ولا تنسوا الفضل بينكم » (١) ؛ ففى ذلك دليل على حضهم ، ومنع بعضهم من بعض ، وحضهم على البر بعضهم لبعض ، إبقاء عليهم ، ومرفقا لهم ، لأنهم أهل خاصته وصفوته ، ودعاهم إلى الصلوات الخمس ، ليطهر أبدانهم ، ودعاهم إلى الزكاة ليطهر أموالهم ، ودعاهم إلى الجمعة ، ليطهر خطاياهم ، ودعاهم لى الحجّ ، ليعتق رقابهم من عظائم الإثم ، ودعاهم إلى صلة الأرحام ، ليرحم بعضهم بعضا فيرحمهم ، ودعاهم إلى الجهاد ، ليتخذ منهم شهداء ، و يرفعهم فى الدرجات ، ثم دعاهم إلى نوع آخر من العبادة ، ودعاهم إلى بر الوالدين ، ليقوم بشكرهما من أجل التربية ، لأنه يبغض الكفور ، ودعاهم إلى الإحسان إلى الجار ، وإلى ذى القربى ، وإلى الصاحب بالجنب ، و إلى الضيف والمملوك ؛ وكل هؤلاء أهل حقوق ؛ ودعاهم إلى الإحسان إليهم ، ليكون ذلك شكرا لهم ؛ فهذه الأشياء كلها عبادة تعبدهم بها .

فأما أصل الأمر ، فهو ماوصفته لك فى أول الكتاب ، أنه دعاهم إلى أحكام المعرفة ، حتى يسكنوا إليه ، فقلب العبد من قبل أن يؤمن أغلف ، وللقلب عين وآذان ، فإذا كان العبد ممن خلقه الله تعالى للرحمة ، وسبقت له منه الحسنى ، جعل له ذلك النور كما نطق به الكتاب ،

---

(١) سورة ٢ آية ٢٣٧ .

امتحن الله تعالى بفرائضه وحدوده وأمره ونهيه ، ونهاهم عن أشياء ، وشهوات تلك الأشياء مركبة فيهم ، وأمرهم بأمور ، فثقل عليهم إتيانها ، وحد لهم حدودا ، فمد لهم هواهم إلى مجاوزتها ، وإلى التقصير فيها ، والقعود عن إتمامها ، ليظهر مافى ضمائرهم ، ومقادير إيمانهم فى الضعف والقوة ، لخلقه من فى السموات والأرض والملائكة وسائر الخلق ، لكى إذا رفع بعضهم فوق بعض فى الدرجات ، لم ير أحد من خلقه من الملائكة والسموات والأرض وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا جميلا ؛ وابتلاهم بالطاعة ، وبالحدود والفرائض ، والأمر والنهى ، فقال : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم [1] » . أى يستخرج أسرار ضمائرهم ، حتى يكون عذرى يوم القيامة قائما ، وأمرى ظاهرا ، فلا يرى خلقى منى ذلك إلا حسنا جميلا ومعروفا ؛ فلما علم أنهم يضيعون حدوده وفرائضه ، من أجل الشهوات المركبة فيهم ، وضعف الإيمان ، وقلة اليقين ، علم أنه سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى والشهوات ، وقلة المعرفة بأمور ربه ، وضعف اليقين ، وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم ، وتعظيما لهم ، لأن من آمن ودخل فى ولايته وحزبه صار سعيدا بجنته ، فحرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، بعضهم على بعض ، وحرم عليهم الغيبة ، والبهتان ، والزور ، والتجسس ، وسوء الظن ، وهتك الستر ، وطلب العورات ،

---

(١) سورة ٤٧ آية ٣١ .

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى [1] » . أي تطهر من الأسباب ، وهو هذه الأخلاق السبعة ، فهم أهل الدرجات العلى فى جنات عدن ، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء ؛ فمن ههنا قالوا بزيادة الإيمان ، سموا هذا النور الذى يزداد العبد بربه معرفة به إيمانا ، كالشمس شعاعها الذى يقع بالأرض تسميه شمسا ، والذى يطلع فى المجرى تسميه شمسا ، لأن هذا منه ، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من أمتى رجالا حال بينهم العرى عن أن يأتوا مصلاهم ، يمنعهم إيمانهم أن يسألوا الناس ، منهم أويس القرنى ، وفرات من حباب العجلى ، رحمة الله عليهما . حدثنا الفضل بن محمد قال : حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن مهدى وعبدالله ابن الأشعث ، عن سوار ، عن محارب بن دثار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فسموا هذا النور إيمانا ، وذلك جائز فى اللغة ؛ وعلى هذا تأويل قول الحسن رحمه الله « غير مستكمل الإيمان » ، أى لم يستكمل النور ؛ فوجدنا التبحر فى العلم بالله بحسن المعرفة يملأ القلب نورا ، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس ، من الشهوات الهاوية فى القلب إلى الإخلاد والتمكث ، فلذلك تراه فى الآخرة يطفىء نوره نيران الآخرة والتمكث على الجسر ، وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر . قلنا : كان أصل هذا الأمر ، والمدار عليه ، هو الإيمان به ، وحسن المعرفة له ، كما وصفنا ، من السكون والطمأنينة ، والثقة به ، والركون إليه ، على قدر ضعف اليقين وقوته ، كما ذكرنا بديا ؛

---

(١) سورة ٢٠ ، آية ٧٥ ، ٧٦ .

يفتتن ؛ والأسباب مثل الحصن يدخل فيه الخائف ، والسلاح يأخذه فيتقوي ، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح ، وينسى ربه ، وكالدواء يستشفى به ، فينسى ربه فى شأن الرزق ، يطلب ويسعى ويغفل عن ربه حتى يفتتن ، فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر ، وجميع الخلق أسباب ، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه ، وهو سبب المعصية والفتنة ؛ فإذا استنارت معرفته فعملت ، كانت كالشمس تشرق فى قلبه بالأسحار ، ولا ظلمة ولا غبار ، فصارت الأشياء له معاينة ، فتخلص القلب حينئذ من الأسباب ، إلى ولى الأسباب ، ومنه قول عيسى بن مريم عليه السلام : لو أن رجلا مستكمل الإيمان يهز جبلا لزال عن مكانه ؛ ومنه قوله لبعض الحواريين حين أراد أن يلحقه فى البحر ، فيمشى على الماء معه : هات يدك ياقصير الإيمان ، ثم مشى به فى موج البحر ، فقال : خفت الموج ؟ قال : نعم . قال : ألا خفت رب الموج ؟ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب لله ، وأبغض لله ، ومنع لله ، وأعطى لله ، ونصح لله ، فقد استكمل الإيمان ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لسلمان رضى الله عنه : قل اللهم إنى أسألك صحة فى إيمان ، وإيمانا فى حسن خلق ، ونجاحا يتبعه فلاح ، ومغفرة منك ورحمة ورضوانا .

وفى هذا الباب حديث كثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومنه قول الحسن البصرى رحمة الله عليه فى تفسير قوله تعالى : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ، قال : غير مستكمل الإيمان : « فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن

وقال : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور [١] » . وقال : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور [٢] » . وقال : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح [٣] » . فوصفه إلى آخر الآية . وقال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام [٤] » . ثم قال : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون [٥] » ، إخبارا عن المنة عليهم . فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذى أعطى ، نطق لسانه بتوحيده ، وعرف قلبه ربه ، وصدقه فى وعده ووعيده ، فاستسلم وألقى يديه ، فذهب عن الشك والشرك والغفلة ، فتيقظ وأيقن وأخلص ، وبدّل بالغفلة اليقظة ، وبدّل بالشك اليقين ، وبدل بالشرك الإخلاص ، وبقيت فيه الشهوة والرغبة والرهبة والغضب ، وكلما ازداد العبد فى إيمانه نورا وقوة وشعاعا ، تنقص من الغضب والشهوة ، والرغبة والرهبة ، فكل مؤمن على قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه ، يغفل عن ربه ، وتعتريه الظلمة كالشك وليس بالشك ، ولكنه ريبة القلب واضطرابه وتغيره ، كالشرك وليس بشرك ، ولكنه شرك الأسباب الموضوعة ، فيتعلق بالأسباب ، يكون اعتماد القلب على الأسباب ، وينسى ربه ، لا لأنه يجحده ، إذا ذكر أقر ، وإذا نسى تعلق قلبه بالأسباب ، حتى

---

(١) سورة ٢ ، آية ٢٥٧ .
(٢) سورة ٢٤ ، آية ٤٠ .
(٣) سورة ٢٤ ، آية ٣٥ .
(٤) سورة ٦ ، آية ١٢٥ .
(٥) سورة ٦ ، آية ١٢٧ .

« يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا [١] » . وقال : « كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لايبصرون [٢] » . فأقروا له بالربوبية ، ثم غفلوا عنه ونسوه ، فهذا الشك والشرك والغفلة فيه . ثم الغضب مركب فيه ، والشهوة كذلك ، فالرغبة فى النفس من قبل النفس ، والرهبة فى النفس من أجل النفس ، والخلق بهذه الصفة من مات منهم فإن جهنم موعدهم ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، فإنما قسمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق ، فكل من غلب عليه خلق من هذه الأخلاق نسب إليه ، وألقى فى ذلك الباب ، وعذب فى ذلك الدرك . وما يصدق ذلك ماجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : للنار باب لايدخل منه إلا من شفى غيظه بسخط الله تعالى ، حدثنا بذلك أبى رحمه الله ، قال : حدثنا عبدالله بن نافع الدينورى ، عن إسماعيل بن شيبة الطائفى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من منّ الله عليه من ولد آدم بالمعرفة ، وجعل له نورا يمشى به فى الناس ، كان [٣] له وليا ، يخرجه من الظلمات إلى النور ، وكان ميتا فأحياه . ووصف ذلك كله فى كتابه ، فقال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه [٤] » ،

---

(١) سورة ٢ ، آية ٢٠ .
(٢) سورة ٢ ، آية ١٧ .
(٣) فى الأصل : فكان .
(٤) سورة ٦ ، آية ١٢٢ .

عن سبيل الله[١] » ؛ فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق : على الغضب ، والرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك . فالخلق كلهم أقروا بأن الله تعالى فطر الناس عليها ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل فأنى تسحرون[٢] » . وقوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون[٣] » . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن الله ؟ قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون[٤] » . فأقروا له تعالى بالربوبية من غير عقل ، ثم أشركوا به غيره فى ملكه ، فقال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون[٥] » فأقروا لله بالربوبية ، ثم أشركوا فيه لأنهم نطقوا من قلب مظلم ، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلا فى كتابه فقال :

---

(١) سورة ٣٨ آية ٢٦ .

(٢) سورة ٢٣ ، آية (٨٤ ـ ٨٩) . وقد وضع المؤلف سهوا مكان الآية الأولى قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . فقل : أفلا تتقون ؟ » .

(٣) سورة ٢٩ آية ٦١ .

(٤) سورة ٢٩ آية ٦٣ .

(٥) سورة ١٢ آية ١٠٦ .

قد ملك المشرق والمغرب ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ؛ ثم قيل له : وهذا قوى لايطاق ، له قوة ألف رجل من الرجال ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ؛ فكل رجل منهم يوصف بواحدة من هذه الخصال ، يأخذ من قلبك شعبة ، و يعظم فى عينك شأنه ، وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك هكذا ؛ فلو أن هـذه الخصال كلها جمعت فى رجل واحد ، لكان يعظم في عينك ، و يكبر شأنه فى صدرك ، وتعظم منزلته عندك ، و يأخذ بقلبك كله ؛ فهذه الأشياء لو اجتمعت فى رجل واحد كانت عارية ، وهى عطاء من ربه ، فعندئذ لايكون من ملكه رأس إبرة وهو مخلوق يفنى و يبلى ، فكيف بالعالم الذى لايشبه علمه وغناه ، وجوده وكرمه ، وحلمه ومجده ، و بهاؤه وجمالته ، ورحمته ورأفته ، وقوته وقدرته ، وسلطانه و بصره بالأشياء ، شيئا مما عند الآدميين ، و إنما اتفقا بالاسم ، فأما الأشباه فتعالى ربنا رب العالمين عن أن يشبهه شىء من خلقه ؛ فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك أموره ، ووعده ووعيده ، وضمانه وكفالته وقوته ؟ فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه واطمأن إلى ربه ، ووثق بقوله ، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى ، حين قبلوا الإيمان بالجملة ، ثم استأداهم الوفاء به عند النوائب ، فمنهم من وفى ، ومنهم من سقط ، و بقى فى الطريق ، فأظلم عليه الهوى ، ووقع من التخليط فى الذنوب ؛ ومنه ماحذر الله صفيه داود عليه السلام ، فقال : « إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك

كان مسلما ، لأنه سأله أن يعلمه غرائب العلم ، وأنه كان أخبر بتلك المعرفة ؛ فلما سأله : هل عرفت الرب ؟ أجابه عن معرفته ، فلما سأله عن الامتحان عما صنع فى حقه ، انقطع الرجل ، فقال : ماشاء الله .

وما جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حدثنا بذلك صالح بن محمد ، قال : حدثنا القاسم العمرى ، عن عاصم بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه : أن رجلا أثنى على رجل عند عمر رضى الله عنه ، فقال : صحبته فى سفر ؟ فقال : لا . قال : فأتمنته على شىء ؟ قال : لا . قال : ويحك ! لعلك رأيته يخفض ويرفع فى المسجد .

ومثل ذلك عندنا مثل رجل رأى قوما لم يعرفهم إلا بالوجوه هكذا ، فتعرف أحوالهم ، فوصف له رجلا رجلا ، فقيل له : أما هذا الواحد فهو عالم لايوجد له فى الدنيا نظير ، لتبحره فى العلم ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه شعبة ؛ ثم قال له : هذا الرجل الآخر غنى ، لايوجد له فى الغنى نظير ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ؛ ثم قيل له : وهذا الآخر كريم ، لايوجد له فى الكرم نظير ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ؛ وقيل له هذا الآخر صانع الأشياء ، لايوجد له نظير فى كل صناعة ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ؛ قيل له : وهذا الآخر كفيل ، يكفل الأرامل والأيتام ، والضعفاء والفقراء ، لايوجد له نظير فى رأفته ورحمته ، فعظم فى عينه ، وأخذ بقلبه ؛ ثم قيل له هذا الآخر شكور ، عارف بالحقوق ، إن أتيت أدنى شىء شكرك الكثير ، ونشر عليك الجميل ، فعظم فى عينه ، وأخذ من قلبه ؛ ثم قيل له : ولهذا مملكة وعز ، ومنعة وسلطان ،

بربه ، يعبده بالهوى ، كلما هوى أمرا ركبه ، وكذب فيما يقول إنى أريد به الله . وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس ، وترك تأديبها ، وقلة النظر فى أمر الله تعالى ، وجهلهم به ، فلو عرفوه لاستراحوا من خدع النفس ودواهيها ، لأن النفس إنما تطمع بمخادعة من يجهل ربه ، فأما العلماء بالله ، العارفون بالنفس ، والشيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها في خدعهم ، لأن النفس إنما تظلم وتوسوس على القلب الشهوانى ، الذى قد أسره الهوى ، وليس لنور الطاعة في القلب مايغلب الهوى والشهوات ، وإنما القوة الغالبة نور المعرفة ، فمن استنارت معرفته كانت أموره على بينة ومعاينة ، وذلك قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه [1] . . . » الآية ، فوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم علاماته بالإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله ، ومنه قول حارثة : كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم ؛ من سرّه أن ينظر إلى عبد نوّر الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى هذا . وماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل : علمنى غرائب العلم . قال : ماصنعت فى رأس العلم ؟ عرفت الرب ؟ قال : نعم . قال : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ماشاء الله . قال : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم . قال : فما أعددت له ؟ قال : ماشاء الله . قال : اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم تعال أعلمك غرائب العلم . أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة ، وسماه رأس العلم ، فقد

(١) سورة ٣٩ ، آية ٢٢ .

والتهابها ، فحينئذ تتخلص أنوار القلب ، ويقوى ويعمل العقل عمله ، ووجدنا فى مبلغ علمنا أن الذى جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن النار تنادى يوم القامة للمؤمن : جز يامؤمن ، فقد أطفأ نورك لهبى ؛ هذا معناه أن من عالج شهوات نفسه وهواه حتى يقهرها وتتخلص أنواره ، ويقوى على قلبه ، فقد أطفأ نور قلبه نيران شهواته المظلمة بالهوى ، فهو النور يوم القيامة[1] ، حتى يطفئ ذلك النور لهب النار عنه ؛ ومن لم يعالج هذا من نفسه ، وخرج من الدنيا مع هذه النيران سوداء مظلمة ، خفت من ألا يقوى نوره على أن يطفئ لهب النيران على الصراط ، لأنه لم يكن له نور على القلب يطفئ نيران شهواته ، وخرجت منه أعمال البر محترقة ، مخلطة برياء ، لأن عامة مايعمل من الطاعات إنما يعمل بهواه ، وبما يخف عليه ، وبما تنشط له النفس وتستحليه ، لا ينظر إلى ما يختار الله له ، ولا يقبل علمه من ربه ، إنما هو عامل لربه على التملك والاقتدار ، والاختيار للأحوال ، حتى ربما حمله ذلك على ترك الواجب ، فى جنب مايتطوع به ، وهذا موجود فى الخلق ، ترى الرجل يصلى بالليل ، ويعق والديه ، ويصوم النهار ، ويسوء خلقه فى شأن فطوره وسحوره ، ويغتاب الناس ، وينفق فى أعمال البر ، ويكتسب الشبهات ، ويعود المرضي ، وينقل الجنائز ، ويؤذى المسلمين ، ويطلب عوراتهم ، ويود الأباعد ، ويقطع الأرحام ، فهذا رجل جاهل

---

(١) جاءت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « فهو الذى يوم القيامة النور » .

إلى آخر الآية ؛ فبين أن القشعريرة إنما هى من الخشية ، فإذا ذكروه فى كرمه وجوده ، ورأفته ورحمته ، لانت جلودهم وقلوبهم .

قال له قائل : فما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه ونعقله ، ولا يبقى على القلب منه شىء ؟ قال : لأن نيران الشهوات فى الخوف قد التهبت ، فهى نيران سود ، مظلمة بالهوى ، وهى مؤدية إلى نار الله الكبرى ، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب ، وأحرق تلك الأنوار ، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذى عليه ، وهى شبيهة بالنار التى تلهب حمرتها ، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه ، كلما ألقيت عليه قبضة من شىء ، أو رششت عليه قليل ماء ، انطفأ قليلا ثم التهب ، فكذلك صاحب الشهوة ، إذا سمع الموعظة ذبل قلبه ، وتخسفت نفسه ، لما يصل إليه من الخوف ، لأن الوعيد مما تنكسر به النفس ، وتخمد شهواتها ؛ ألا ترى أن الرجل يكون فى لذة من لذات الدنيا ونشاط ، فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر ، وذهب نشاطه ، فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب ، لكانت النفس والشهوات أشد انكسارا ، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب ، فهو صلب أبدا ، فرح مرح ، أشر بطر ، فهو ينور بلهب ، فإنما يطفأ بالماء الكثير الغالب ، وهو العلم المؤدى إلى الخوف والوعيد ، وليس يوجد هذا ، فما الحيلة فى ذلك ؟ قال : إنا لا نعلم له حيلة ، إلا أن يمنع من إلقاء الحطب عليه ، فإنه متى زاده وقودا اتقد ، و نار والتهب وقوى ، ومتى ماحبس عنه وقوده خمد ، حتى يصير رمادا ، و يذهب حر التنور ؛ كذلك ههنا ، يحبس عنها الشهوات حتى تخمد ، فتذهب فورتها

به ، فإذا ذكر المنة غرق ، وإذا ذكر العافية قلق ، وإذا ذكر حلول الأجل شرق ، وإذا ذكر العيوب عرق ، وإذا ذكر الرعاية والكلاءة ومق ، وإذا رأى اللذات فى الطاعة مئق ، وإذا ذكره تئق ، وإذا حن إليه واشتاق غرق فى أثقال المنة ، وعظمت آماله فيما لديه ، وقلق من خوف زوال الإيمان ، وشرق بغصته من حلول الأحزان ، لطول الحبس عنه فى دار الدنيا ، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولطفه ، وجميل نظره ، وحسن عوائده ، ومن جميل صنائعه ، ومن هرب النفس منه ، وإعراضه عن حقوقه ، وإظهار جفوته ؛ وهو من عظيم عطفه عليه فى كلاءته ورعايته ، واصطناعه إليه ؛ ومئق لما يرى من فتح باب الدعة ، وإكرامه بالطاعة ، وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة ، وتئق من طول الغربة ، وشدة الحنين ، فأنسه به ، وسكونه إليه ، وهو ملجؤه وثقته ، وكهفه وسنده ورجاؤه ، لا يتهمه على نفسه ، ولا يسىء به الظن فى نوائبه ، بحسن معرفته بر به أنه غفور رحيم ، ودود حميد مجيد ، واحد صمد قيوم ، كفيل وكيل ، جواد كريم ، حنان منان ، حي لا يموت ، لطيف بعباده ، بر رحيم ، شكور غفور ، حليم عفو رءوف ، معروف بالمعروف ، محسن مفضل ، فضله عظيم ، إحسانه دائم ، كرمه ظاهر ، فاطمأن قلبه ، كما وصفه ربه ، فقال تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، إلا بذكر الله تطمئن القلوب[١] » . وقال الله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث[٢] »

---

(١) سورة ١٣ ، آية ٢٨ .

(٢) سورة ٣٩ ، آية ٢٣ .

فى دار الدنيا ؛ فالقلب الموقن ، صفته إذا تناول النعمة ، فكأنما يتناولها من خالقه ، فيأخذها بحياء ، ومرة بحلاوة ، ومرة بمهابة ، ومرة بخوف ؛ وإذا نزلت به بلية أبصر بنور يقينه إلى أموره ، اختار له هذا ، فظن به أحسن الظنون ، لأنه أيقن أنه به أرحم منه بنفسه وأرأف ، فأتمن ربه ، واتهم نفسه ، وقال : ربى أعلم بما اختار لك ، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره ، لم أصلح على اختيارك وتقديرك أيتها النفس ، واختيارك أنزل بى هذه البلية لإحدى خلال : إما تكفيرا لخطيئة استوجب بها هذا العذاب الأكبر ، وإما رفع لى درجة يقربنى إليه ، وإما بينهما لأمر عظيم ، أو عصمنى من ذنب ، أو صرف عنى داهية ، أو عاجلنى بعقوبة ، لأن يرفع عنى عقوبة الآخرة ، ففى كل هذا خير . وأما العارف فإنه أجمله ، فقال : هو مشيئة ربى ، فمشيئته أجلى عندى وأعظم على قلبى ، من نفسى وجميع جوارحى ، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه ، فصارت أحكامه التى رضيها لهم منية قلوبهم ، من إجلالهم له وإعظامهم .

عدنا الى صفة الموقن :

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان ، واطمأن بوفائه ، فإن طلب طلبه مع سكون القلب ، على حد ما أمر به ، فإذا عرض له فى ذلك شىء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى ، أعرض عنه ، وتوجه إلى ربه ، ينتظر من أين يفتح ؛ والعارف تخلص من هذا كله ، من الضمان والوفاء ، وشغل عن طلب الرزق بالرزاق ، فقلبه فى البحر الأكبر ، قد تعلق قلبه

جنان ؛ والحارث فى الفردوس الأعلى . فرجعت وهى تضحك وتقول : بخ بخ لك ياحارثة .

أفلا ترى أنه لما راض نفسه بأن قال : عزفت نفسى عن لذات الدنيا وشهواتها ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى ، فصارت الأمور الغائبة عنده معاينة ، فعمل على الحقائق ، وذهب الجهل ، لأنه من نصب وتعب وعمل على المعاينة ، زال الجهل عنه ؛ ومن عمل على غير المعاينة ، فهو فى جهد عظيم ، ومخاطرة عظيمة من قبل نفسه ، إلا من عصم الله تعالى ، لأنه كالسائر فى الظلمة : أحياناً يمشى ، وأحيانا تنهشة حية ، أو تلدغه عقرب ، لا يبصر أين يضع قدمه ، فهذه مخاطرة .

وأما جهده ثقل نفسه ، فإنما ثقل أنه لم يعاين مائمرة هذه الأمور ؛ هو بمنزلة رجل قيل له : احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فهو يجد ثقلها على فؤاده ، فقيل له : احمل ، ولك هذا الدينار ، فاستمر بالحمولة ، ونهض بأعباء ثقلها ، فوجد خفة الحمولة ، لأنه قوى القلب بما عاين من الدنيا ، فقويت الأركان ؛ أو قيل له احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فعلاه بالسيف أو بشعلة نار ، فخلص إليه الخوف ، فاحتمله ، فوجده خفيفا ، لأن القلب قد عزم على احتماله ، هربا من السيف ، أو قيل له احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فقيل له : هذا الملك وأنت بعينه ينظر إليك ، فوجد القلب قد انتقل عن حالته ، إجلالا للملك ، فاستمر بالحمولة وقوى القلب ، فإنما أدرك حمل هذه الحمولة بما عاين ؛ فكذلك صاحب النفس قد عاين وشاهد قلبه ، مما هو أكثر مما هاهنا من معاينة بصر الرأس

فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت ؛ فإذا كان كذلك صفا قلبك من كدورة الأخلاق ، وطهر من شهوة الآثام ، فاستقر اليقين فيه ، لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانا طاهرا ، فتحيا القلوب وتصلب ، لأنه من الله ، قد قرب عبده واصطفاه ، فيصير حينئذ ماغاب عن العين من أمور الآخرة ، وأمور الملكوت ، بعين قلبه ، فهو كالبرق فى ليلة ظلماء ، إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ماغاب عنك فى تلك الظلمة ، من بئر أو جرف أو واد ؛ أو ما ترى إلى حديث حارثة ؟ حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا يوسف بن عطية ، عن أنس ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا ، قال : فانظر ماتقول ، فإن لكل قول حقيقة . قال : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون ، وكأنى أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها . قال : عرفت فالزم . عبد نور الله الإيمان في قلبه . فقال : يارسول الله ، ادع الله لى بالشهادة . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى يوما فى الخيل ، وكان أوّل فارس استشهد ، فبلغ أمه ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، أخبرنى عن ابنى ، إن يك فى الجنة لم أبك عليه ولم أحزن ، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ماعشت . قال : ياأم الحارث إنها ليست جنة ، ولكن جنة فى

إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا ، وحلاوتها فى قلبه ، وحبه لها ؛ وكان سبب نجاته من هـذه الآفات برحمة الله رياضته هـذه النفس ، بمنع الشهوات منها .

وهذا فى الآثار موجود قائم عن السلف ، قد سارت به الركبان ، من غير وجه ؛ حدثنا محمد بن سهل ، قال : حدثنا عمر بن منصور القيسى قال : حدثنا عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم : « ماذا تقولون فى صاحب إذا أتتم أكرمتموه ورحمتموه وأطعمتموه وسقيتموه ، دعاكم إلى شر غاية ؛ وإذا أتتم أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه وأعطشتموه وأتعبتموه ، دعاكم إلى خير غاية ؟ قالوا : يارسول الله ، هذا شر صاحب فى الأرض . قال : إى ، والذى بعثنى بالحق ، هى أنفسكم التى بين جنوبكم » . وحدثنا صالح ابن محمد ، قال : حدثنا أبو مقاتل ، عن ابن عون بن أبى راشد ، عن الحسن رضى الله عنه ، قال : بلغنا عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، قال فى خطبته : « لاتضرين بكم الشهوات ، فانها أشد حرا فى الجوف من النار ، وأشد سكرا من الخمر ، وإنكم لاتدركون ما تأملون ، إلا بالصبر على ماتكرهون ، ولا تنالون ماتحبون ، إلا بترك ماتشتهون » . حدثنا عمر عن سهل بن تمام ، عن عمار بن منصور ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : طهروا قلوبكم بقلة الطعام تصفو ، فترق وتصلب وتستعف » ؛ فصفاؤها لله ، وصلابتها فى الدين ، ورقتها للاخوان ، واستعفافها فى ذات الله تعالى .

ماظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق[١] » . فالبغى فى الشىء الحلال حرام ، والفخر حرام ، والمباهاة حرام ، والرياء حرام ، والسرف حرام ؛ فإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الآشياء بقلبها ، حتى فسد القلب ، فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق ، تريد بذلك تغنيا أو مباهاة أو رياء ، علمت أنها خلطت حراما بحرام ، فضيعت الشكر ، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر ؛ فلما رأيت سوء أدبها منعتها ، حتى إذا ذلت وانقمعت ، ورآنى ربى مجاهدا فى ذاته حق جهاده ، هدانى سبيله كما وعد تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين[٢] » . فصرت عنده بالمجاهدة محسنا فكان الله معى ، ومن كان مع الله فمعه الفئة التى لا تغلب ، والحارس الذى لاينام ، والهادى الذى لايضل ؛ وقذف فى القلب من النور نورا عاجلا فى دار الدنيا ، حتى يوصله إلى ثواب الآجل ؛ ألا ترى إلى ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قذف النور فى قلب عبد انفسح وانشرح . قيل : يارسول الله ، فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » ؛ وإنما تجافى عن دار الغرور ، بما قذف فى قلبه من النور ، فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخدعها وخرابها ، فغاب عن قلبه البغى والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء والحسد ، لأن ذلك

---

(١) سورة ٧ ، آية ٣٣ .

(٢) سورة ٢٩ ، آية ٦٩ .

فسهوت ولهوت عن ربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، وجمل صورتك ، ودعاك فأعطاك وحباك ، وأملك ومناك ، ومن عظيم الخطر ومن ظلمة الكفر نجاك .

فهذا الذى وصفنا من تركك الشهوات ، وتجنبك اللذات ، ليس تحريم الذى أحل الله لك ، ولكن تأديب[1] لنفسك ، ورياضة لها ، لأن هذه النعم إنما أمرت وأذن لك فى تناولها ، على الأدب الذى أدبت به على لسان الكتاب والرسول ؛ فلما ساء أدبك لما فيه من أخلاط السوء التى مالت بك ، لم تجد بدا من أن تعظمها مرة ، حتى يجد القلب فراغا إلى تعلم الأدب ، فتأخذ طريقا ؛ فأما قلب معلق بالشهوات ، مأسور باللذات ، مقهور بالمنى ، محبوس فى سجن الهوى فى بئر مظلم ، فكيف يمكنه أن يتناول ماأعطى بإذن الله ؛ فإن بعض من خفى عليه هذا النوع من العلم ، كبر فى صدره هذا ، حتى ربما يفرح إلى الاحتجاج بقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين[2] » . وبقوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[3] » . فهذا من الاحتجاج تعنيف ، ومن القول تحريف ، لأنا لم نرد بهذا التحريم ، ولكن أردنا تأديب النفس ، حتى تأخذ الأدب ، وتعلم كيف ينبغى أن تعمل فى ذلك ؛ ألا ترى إلى قوله جل وعلا : « إنما حرّم ربى الفواحش

---

(١) فى الأصل : تأديبا .
(٢) سورة ٥ ، آية ٨٧ . (٣) سورة ٧ ، آية ٣٢ .

وأبيض ، وهو الليل والنهار ، حتى تؤديك إلى الخالق البارىء ، المثيب المعاقب ، فتعظم ماصغر الله ، وتكرم من أهانه الله ، وتدنى من أقصاه الله ، وتتعلق بمن لابد أن تفارقه ، وتعمر ماأذن فى خرابه ؛ فإذا ذهب ثمراتها حبست عنها الفكرة فيها ، والحديث عنها ، والتذكر لها ، حتى تيبس ، ثم لاتزال تمنية شهواتها قائمة بينك و بين ربك ، تفرح بالعطاء ، وترضى بما تعطى به ، وتروم مالم تعط ، وترى نفسها فى الأشياء ؛ فهى تحجبك وتشغلك ، حتى إذا منّ الله عليك بنور اليقين ، فهى كالبرقة ، كما تشعل شجرك[1] نارا ، فيذهب أثره وذكره ، كذلك البرقة تحرق قائمة نفسك ، فيذهب أثرها وذكرها ، و يبقى والها منفردا به ، فتكون الأشياء والأمور منك له و به ؛ فإذا أهملتها ، وعجزت عن رياضتها ، رجعت عليك بوبال عظيم ، تعرض عن دار دعاك إليها رب العالمين ، فقال تعالى : « والله يدعو إلى دار السلام [2] » ، أمنك من آفاتها ، فنسبها إلى اسمه السلام من بين الأسماء ؛ يعلمك أن لسكانها السلامة من الآفات ، محشوة بالنعم ، مشحونة بالرضوان ، وتلهى عنه باللعب والباطل ؛ كفى بهذا عارا ، وأنت عبد سخر الله لك الخلق والخليقة لم تنل حتى تكون ماعشت قائما بتربية حقوقه ، ناظرا لأموره ، معظما لشأنه ، ذاكرا له ، ناشرا عنه الجميل ، مشتاقا بقلبك إلى لقائه ؛ فأقبلت على تربيتك نفسك ، وطلبك لها العز والجاه ، والمنزلة من الخلق ، والذكر على الألسنة ؛ فهذه ربوبيته ، فكيف تتفرغ للعبودية من طلب الربوبية ؛ فاشتغلت عنه ،

(١) فى الأصل : شجرتك . (٢) سورة ١٠ ، آية ٢٥ .

القلب وقسا ويبس ، فخف عن ذكر الله ، ولهى عنه ، فالمشروح صدره للاسلام ، شرحه ربه « فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » فمدت النفس آلتها ، فصار فى سلطانها ، كما يحمى القوس حتى تلين ، ويتخلى عن البيت الأول .

كذلك تراض النفس بأن تحمى ، وهو أن يمنعها اللذات والشهوات ، فتحزن ، ويصيبها حرقات منع الشهوات فى مصائبها ، فبتلك الحرقات تذل وتتقمع ، وتلين وتتخلى عن القلب ، فيرجع القلب إلى مكانه بنور المعرفة ونور العقل ونور العلم ونور فوائد العطايا ؛ فكلما منعت النفس شيئا من هذه الشهوات ، خلت عنه كما وصفنا ؛ وكلما أعطيت النفس منيتها قويت ، فصارت كالشجرة تثمر الحنظل والدفلى والمر والصبر والسموم القاتلة ، فإن أردت ألا تنمو ، فالتدبير فيما عقل العبد وفهمه ، أن تحبس عنها الماء والسرقين والتراب الذى يلقى فى أصله ، حتى تيبس ، فتصير جذعا لا يثمر ولا يرجع عليك بالضرر ؛ ثم لا يزال جذعا يعترض بين عينيك ، يشغلك عما سواه من الأشجار ، فتشعل فيه نارا ، حتى يذهب شخصه من بين عينيك ، فإذا هو قد ذهب أثره ، وذهب ذكره .

وكذلك النفس : فى التدبير أن تحبس عن النفس لذاتها وشهواتها ، حتى تذهب ثمراتها من هذه السموم القاتلة ، التى تميت قلبك فى الدنيا ، فتصير أعمى من العميان فى الدنيا بصيرا في دين الله جل وعلا ، فتقبل على مزبلة وهى الدنيا ، وإنما هى قنطرة ، تداولتك أيدى أسود

إذا تركتها حتى تقوى شهواتها ، ويشتد حرها فى الجوف ، وتقوى ظلمة الهوى ، أخذت من البيت الأعلى ، وهو نور العقل ونور المعرفة ونور الروح ونور العلم ، فتحرق بنيران الشهوات ، من هذه الأنوار التى فى القلب بقدر قوتها ؛ وإذا قويت بنيران الشهوات ضعفت الأنوار ، فيظلم الهوى على اليقين ، فيتولد الشك على القلب من هذه الآفات ، فتغلب على القلب هذه الآفات ، فمن ههنا يصرع ، فهذا هو القلب المصروع ، والمأسور فى يد هواها ؛ (١قلما خرج منه١) عمل من أعمال البر ، ثم لم يصب الغرض ، فوقعت رميته يمينا وشمالا ، وربما خرج منه فلم يبلغ الغرض لضعف القوس ؛ وذلك أنه رمى عن قوس قد أصابتها الآفات والعلل ؛ فكذلك آفة القلب الذى وصفنا ، ربما أردت برا ، مال بقلبك الهوى إلى الشهوات يمينا وشمالا ، حتى تحيد عن السبيل والسنة ، وربما جاوزت الغرض ، وربما ضعف قلبك ، فعملت بغير نية ، فلم يبلغ عملك إلى ربك ، كما قصرت الرمية عن الغرض ؛ أفلا ترى كيف تعالج القوس وتحمى حتى تلين ، فإذا لانت سويت ، حتى يرجع البيت الأعلى إلى مكانه ، وإنما زال عن مكانه لأن البيت الأسفل لما قوى وصلب مد بالبيت الأعلى بفضل قوته ؛ فكذلك النفس لما قويت وصلبت شهواتها ، انتشرت وهاج هواها ، فأحرقت أنوار القلب ، والقلب هو رطب بالأنوار ، لأن النور هو من الله تعالى رحمة ، والرحمة باردة ، والقلب لين منقاد برطوبة تلك الأنوار ، فإذا احترق النور صلب

(١ — ١) فى الأصل : كلما خرج من ، وهو تحريف .

الذهب ساقط المنزلة عن القلوب . ألا ترى أن عمر رضى الله عنه أراد أن يتخذ الدراهم من جلود البقر .

فإنما ينبغى لك أن تفضل عندك شأن الدينار والدرهم ، بما أنزل الله لابهواك ، ألا ترى لو أن رجلا أتى سمرقند بعض هذه الكور التى تجوز فيها هذه الفلوس ، كان للفلوس عنده قدر ، إن افتقدها حزن ، وإن وجدها فرح ؛ فإذا تحول إلى كورة لاتجوز فيها تلك الفلوس ، فلو رمى بها لم يبال ؛ فهذا مما يدلك أن الذهب إنما عظم موقعه من القلوب لعظم منفعته ، بأنه صار ثمنا للأشياء ، فمن أجل ذلك بغض الله تعالى كثيرا من الناس من أجل أنهم رأوا منفعة الأشياء من الدينار والدرهم ، لا من الله عز وجل .

فينبغى لك أن تروض نفسك وتفطمها عن هذه الأشياء ، حتى يصفو قلبك ، ويسير باليقين ، حتى ترى الدينار والدرهم خلقين من خلق الله تعالى كسائر الخلق مبتدعا ، ثم تنزلها بالمنزلة التى أنزلها الله تعالى ، فبإنزاله يفضلهما ، ويرى المنفعة التى فيهما من خالقهما ، فحينئذ يستوى عندك حالهما ، فى أنهما خلقان من خلق الله تعالى ، فهذا عندنا معنى قول عيسى ابن مريم عليهما السلام .

فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها مادامت الشهوات منها حية ، والهوى قائما ، ألا ترى أن القوس إذا ترك استعمالها وتعاهدها وعتقت ، كيف يأخذ البيت الأسفل من البيت الأعلى ، فكلما رميت بها سهما أخطأ الغرض ، كذلك النفس

عن نفسه أنه قال : وجدت الدنيا أربعة أشياء ، فما زال يروض نفسه حتى أطاعه الهوى ، حتى قيل له حيث يريد الشام : كيف تبكى على أهل مصر ؟ قال : لأن بها إخوانى ، وبها كثرة تجاوب المؤذنين ، وبها ظمأ (١) الهواجر . قيل له : فقد أذن لك ، أفلا ترجع ؟ قال : أكره أن أرتحل رحلة هوي .

وكما روى عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى ، أن رجلا قال لمعلمه : قد قطعت الهوى . قال : أتفرق بين النساء والدواء ؟ قال : نعم . قال : فأنت أوثقت الهوى ولم تقطعه .

وكما روى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام : هل يستوى عندكم هذان : كف من تراب ، وكف من ذهب ، قالوا : لا . قال : فهما عندى سواء . فهذا قطع الهوى .

قال له قائل : اشرح لنا هذا . وكيف يستوى هذان فى قلب ؟

قال : إن الناس إنما فرقوا بينهما ، وفضلوا الذهب على التراب بالهوى ، لما رأوا منفعة الذهب ، فضلوه من أجل المنفعة ؟

فينبغى لمن أراد التخلص من هذا ، أن يروض نفسه ، حتى يرى بنور اليقين الأشياء كلها مستوية ، بمعنى أنها خلق الله تعالى ، ثم يرى المنازل التى أنزلها الله تعالى ، فبإنزاله إياها بين لها تلك المنزلة موافقة له ، ولو شاء جعل المنفعة التى فى الذهب ، فى الزجاج وفى الحجر ، ولكان

---

(١) فى الأصل : « فما » .

ومن آية قواه أنه قوى الحمرة ، وأنه جيد ؛ وذلك الردىء المغشوش يريك حمرته مادام كثير القدر ، كثير الوزن ، مجمع القوى ، فإذا حككته بحجر ، فبقى الذى على الحجر ، رأيته أصفر ، فعرفت أنه ليس بجيد .

فكذلك القلب لا يتبين ما فيه حتى يفطم ، ويريك أنه قد صفا بالفطام ، فحينئذ يحك بحجر البلوى ، فيختبر سكونه بمن ، وإلفه مع من ، أبا لله سكونه ومعه ألفه ، أم لعطائه سكن ، ومع أحوال نفسه ألف ؟ فالحك هو النقصان ، فمن كان سكونه به ، وإلفه معه ، لم يتغير للنقصان ، أعنى نقصان العطاء ، ولجزيله ، لأنه للنقصان والتجزيل يبين إلى ماسكنت ، وهل قطعت الهوى ، فهذه منزلة عبادتك له بما هو أهله ، وهو الذى يقال له : اعبد الله باليقين لا بالهوى ، واليقين عقيب الهوى ، فكل ما نقص من هذا ازداد من ذلك ، فهما يتعاقبان أبدا . ويقال : الصبر صبران : صبر على الشدائد ، وصبر على مايدعوك إليه الهوى ، طاعة كانت أو معصية ، فإذا فطمت نفسك عن طاعة الهوى ، حتى صار لك عادة ألا تطيع الهوى في شىء من الأشياء ، وإن أبيح لك ذلك الشىء ، استنار قلبك باليقين ، وهو نور مشرق فى الصدر ، وعينك تنظر إلى ذلك النور ، ونفسك يقظان [1] بقرب الله عز وجل ، كما قال عامر بن عبد قيس رحمه الله : ماوقع بصرى على شىء إلا رأيت الله أقرب منه . وروى عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى نحو من ذلك ، وإنما أدرك عامر هذه المنزلة ، لأنه راض نفسه حتى صار بحال — حكى

(١) فى الأصل : « يقفان » . ولعل صوابه : يقظى .

وأرق أفئدة ، فوصف القلب باللين ، والفؤاد بالرقة ، فالنور إذا خرج من باب القلب أشرق فى الصدر ، فأبصر عين الفؤاد ذلك النور ، فإذا فكر فى الجنة أو النار، أو فى شىء من أمور الآخرة ، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر[1] ، فتمثل ذلك الشىء بين عينى القلب ، فصار كأنه ينظر إليه ، وإذا ذكر الرب تبارك وتعالى لم يقع لذكره ظل على الصدر ، ولكنه يشرق النور ، ويتلألأ النور فى الصدر ، حتى يكاد يغشى بصر القلب ، لأن النور إنما أشرق فى الصدر ، لأنه نوره ، فإذا ذكر الأشياء ، فالأشياء مخلوقة ، فوقع للأشياء ظل ، وإذا ذكره تلألأ النور ، ولم يقع فى الصدر ظل ، وهو بمنزلة قنديل معلق فى البيت ، فحائط البيت يشرق عليه نور الصباح ، فإذا رفعت يدا أو شيئا بين الحائط وبين المصباح ، وقع لذلك الشىء على الحائط ظل ، وتمثل ذلك الشىء ، فإذا رفعت بين المصباح وبين الحائط مصباحا[2] آخر ، ازداد ذلك إشراقا وضياء ، ولم يتمثل على الحائط صورة ، ولا وقع ظل ، فهذا شأن القلب .

فإذا حمى القلب بالفطام من الهوي فصفا ، صار كالذهب يخرج من النار ، فحينئذ يحك بالحجر ، اختبارا لجودته . وذلك أن الذهب لاجتماعه وكثرته ، أراك لون حمرته ، بقوة بعضه من بعض ، وانضمام بعض إلى بعض ، فإذا حككت منه شيئا بحجر ، وبقى بالحجر من ذلك شىء لطيف رقيق ، تبين لك جودته أنه يريك فى حال الضعف والرقة ،

---

(١) فى الأصل : « الصد » .

(٢) فى الأصل : « مصباح » .

نور معرفتك ، ونور إلهك الذي هو نور السموات والأرض ونور كل شيء ، فإذا أقبلت على الله تبارك اسمه ، أشرق القلب بالنور ، فذلك اليقين ؛ و إذا كان بالمرآة صدأ فقلب بها إلى عين الشمس ، لم يشرق فى البيت منه شمس ، لأنه قد حال بين نور المرآة ونور الشمس ذلك الصدأ ، فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى ، لم يشرق بالنور الأعظم ، لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم ، وهو اليقين ، فإذا ذهب الهوى ، فنظرت له ، تلاقى النوران ، فأشرق فى صدرك ، فأبصرته عين قلبك ، فصار يقينا . واليقين فى لغة العرب هو الشيء المستقر الثابت ، تقول العرب : قد يقن الماء فى الحفيرة .

قال له قائل : اشرح لنا صفة القلب .

قال : القلب بضعة من لحم ، فى جوف بضعة أخرى ، وهو الفؤاد ، ومعدن النور القلب ، ومنه قيل خبز فئيد ، لأنه فى جوف الرماد الحار والجمر ، فالبضعة الخارجة هى الفؤاد ؛ و إنما سمي قلبا لأنه يتقلب ، وله عينان وأذنان و باب ، والصدر بيته ، و إنما سمي صدرا لأن الأمور تصدر عنه ، فالنور الذى فى القلب يعرف ربه ، لأنه نوره ، وهو حبة القلب ، واشتقاق الحب منه ، لأنه وصل حبة قلبه ، ومنه قوله عز وجل : « حبب إليكم الإيمان [1] » ، أى أوصله إلى حبة القلوب ، ثم قال تعالى : « وزينه فى قلوبكم » ولم يقل فى فؤادكم ، ومما يحقق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتتكم أهل اليمن ، هم ألين قلوبا ،

(١) سورة ٤٩ ، آية ٧ .

قلبك ، فذابت تلك الأخلاط عن قلبك ، وطهر قلبك ، وخرج صافيا كما خرج الذهب الذى أحمى ، فتهافت عنه تلك الأوساخ والأدناس ، لأن للهوي على القلب أوساخا وأدناسا ، كما كان للمعاصى على القلب نكت سود ، على ماجاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا عاد نكت أخرى ، فإذا تاب ونزع صقل قلبه ، ثم تلا : « كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون [1] » . فإذا ذهبت المعصية بالتوبة ذهب سواده ، وبقى دخانه ، وذهب الشيطان ، و بقى ظله ، كما ذهب الليل و بقى سدفه وآثاره عند وجه الصبح ؛ فإذا تاب عن المعصية وهو ممن يستعمل الهوى ، فالهوى باق بعد ، فهذا قلب قد تاب ولم ينزع ، فلم يصقل قلبه بعد ؛ وذلك أن المرآة المصقولة إذا نظرت فيها أرتك عن اليمين وعن الشمال ، وخلفك وأمامك ؛ فإذا قلبت بها إلى عين الشمس هكذا ، فلاقى نور المرآة نور الشمس ، وجدت الشمس تشرق فى مكانك وفى بيتك ؛ فكذلك إذا صقلت مرآتك ، وهى قلبك ، نظرت عنها إلى الجنة والنار ، و إلى بهاء الحسنات ، و إلى جمالها ورفعة مرتبتها ، و إلى قبح السيئات ، و إلى الدنيا والآخرة ، و إذا نظرت فيها إلى تدبير خالقك ، تراءى لك عجائب ، وذلك النور الذى تجده عندك ، إذا أقبلت بمرآتك إلى عين الشمس ، ليس هو الشمس ، إنما هو نور حدث من بينهما ، فإذا صفا قلبك من الهوي ، حينئذ تجد اليقين ، لأن اليقين هو نور يحدث على قلبك من

---

(١) سورة ٨٣ ، آية ١٤ .

الله عليه وسلم لسعد بن معاذ رضى الله عنه : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعة . والرفيع : السماء ، والأرفعة : جماعة . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أصاب فيهم [١] حكم الله عنده ، وكان حكم بأن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتكون الغنيمة للمهاجرين دون الأنصار ، وذلك فى شأن بنى قريظة .

حدثنا عبد الكريم بن عبدالله ، عن على بن الحسن ، عن عبدالله ، قال : أخبرنى أبو بكر بن أبى مريم ، حدثنى راشد بن أبى راشد ، قال كنت مع خالد بن أبى معدان يوما فى بعض أسواق المدينة بحمص ، فإذا نحن بنصرانى أظهر الشرك بالله تعالى ، فقال لى خالد : احسر عن ذراعيك ، ثم قال لى : دق أنفه ، قال راشد : فوجأت أنفه أن دققته ، فانطلق النصرانى فاستعدى علينا ، فقال الوالى لخالد : ماحملك على ماصنعت ؟ قال : أرغم الله أنفه وأنف من ثقل عليه تأديبنا له ، إنه ليس لهم أن يظهروا شركا ولا صليبا ، فيصنع هذا بهم حتى يكفوا عن إظهار الشرك بالله عز وجل .

حدثنا عبدالله بن أبى زياد ، قال : حدثنا سيار عن حفص بن سليمان ، عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : رأى عامر بن عبد قيس ذميا يظلم ، فألقى رداءه فقال : والله أتخفر [٢] ذمة وأنا حى ؟ فاستنقذه .

فإذا فطمت نفسك عن حرارة الهوى ، ووقعت حرارة الفطام على

---

(١) فى الأصل : فيكم .

(٢) كذا فى الأصل . ولعله : لاتخفر .

الأرض عيونا ، وإن عليا من عيون الله . حدثنا عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، سمعه من قيس بن أبى حازم ، قال : عرض أبو بكر الصديق رضى الله عنه فرسا له ، فقال غلام من الأنصار : احملنى عليها ياخليفة رسول الله ، قال : لأن أحمل عليها غلاما قد ركب الخيل بعدلته ، أحب إلى من أن [١] أحملك عليها . فقال : لم ؟ فوالله أنا خير منك فارسا ، ومن أبيك . قال المغيرة : فما ملكت نفسى أن أخذت برأسه فركبته ، فأقبلا منخراه كأنهما عزلاء [٢] مزادة . قال : فبلغ أبا بكر رضى الله عنه ، أن ناسا من الأنصار يتوعدون المغيرة ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : بلغنى أن ناسا من الأنصار يتوعدون المغيرة ، والله لا يخرجوا [٣] من ديارهم أسرع من أن أقيدهم بروعة الله .

حدثنا الجارود ، عن يزيد بن هرون ، عن حماد بن سلمة ، عن هشام ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : أرسل أبو بكر الصديق خالد بن الوليد رضى الله عنهما إلى بنى سليم ، فجعلهم فى الحضأر [٤] ، فحرقهم بالنار . قال عمر رضى الله عنه لأبى بكر رضى الله عنه : تستعمل رجلا يعذب بعذاب الله ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : دعنا عنك ياعمر ، والله لأشيمن سيفا سله الله على المشركين ، حتى يكون هو الذى يشيمه . وقول رسول الله صلى

---

(١) زيادة ليست فى الأصل .

(٢) عزلاء المزادة : فمها ، والجمع : العزالى . وفى الأصل : عذلا . تحريف .

(٣) فى الأصل « يحوحوا » .

(٤) كذا فى الأصل . ولعله : الحظائر ، جمع حظيرة ، وهى مايدار حول الإبل وغيرها من خشب أو قصب ، لحفظها من البرد والريح .

الرسول بدرجة ، والمحدث دون النبي بدرجة ، وللرسول درجة الرسالة ، وللنبي درجة النبوة ، وللمحدث درجة الحديث . وقد أحكم الله بهذا الإسلام الذى ارتضاه لنا دينا على لسان الكتاب والسنة ، ما ليس لأحد فيه استبداد ، ولا تجاوز ولا تقصير ، إنما هو حفظ الحدود ، واتباع الأمر الجملة[1] ؛ ثم الصديقون والملهمون والمحدثون أمور خارجة من الحدود والأحكام ، وهو تدبير الله عز وجل وكلاءته ، على ماذكرناه بدءا .

ولم نجىء بشأن ذكر الخضر ههنا لنطلق لمن بعده مثله ، إنما أردنا أن نحقق أن لله عبادا يضع عندهم من مكنون العلم ماشاء ، وأن لهم عنده من المنازل مايتحقق عند من يفهم هذا ، أن ذلك الذى قلنا كيف يكون ، حتى به يسمع ، وبه يبصر ، وبه ينطق ، وبه يبطش ، وبه يمشي ، وبه يعقل .

فأما ماذكر فى الأخبار ، حدثنا عمر بن أبي عمر ، قال : حدثنا الربيع بن روح الحمصى ، قال : حدثنا ابن عياش ، عن ضمضم بن زرعة الحضرمى ، عن شريح بن عبيد الحضرمى ، عن عبدالله بن زيد ، قال : قال لقمان عليه السلام : ألا إن يد الله تعالى على أفواه الحكماء ، فلا ينطق أحد إلا بما هيأه الله له . وحدثنا أبو بكر بن سابق الأموى ، قال : حدثنا عمر بن عبيد الطنافسى ، عن الأعمش ، قال : جاء رجل إلى عمر رضى الله عنه ، قال : إن عليا شجنى . فقال لعلى : لم شججت هذا ؟ قال: إنى مررت به وهو مقاوم[2] امرأة ، فساءنى مقامها ، فضغيت لها ، فسمعت ما كرهت ، فشججته . فقال عمر رضى الله عنه : إن لله فى

(١) كذا فى الأصل . ولعله : فى الجملة ، أو على الجملة . (٢) قائم معها .

وألهمه وفهمه ، وصيره من أولى الألباب ، فإن نطق نطق بحكمة ، وإن أنصت أنصت بفكرة ، وإن نظر نظر بعبرة ، وإن مشى مشى بهيبة ، وإن بطش بطش بغلبة ، قد منع قلبه من التفكير ، وسلب فى الأمور التدبير . وهذا كله موجود تحققه فى الكتاب والخبر .

فأما فى الكتاب فشأن الخضر عليه السلام ، حرق السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، فلو عمل فى الظاهر ماقدر على ذلك ؛ ثم قال فى آخر أمره : « وما فعلته عن أمرى [١] » . فهذا من الله فى الباطن ، الذى يؤتيه من يشاء ، وقد قال فى ذكره له : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما [٢] » . فقد بين أن هذا له من طريق العلم الذى علمه ربه . وما ذكر من شأن ذى القرنين ، فقال : « إنا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سببا ، فأتبع سببا [٣] » . فأوتى العلم الذى لم يؤت غيره .

فإن قال قائل : فهل يجوز لأحد أن يفعل على مايتراءي له فى قلبه ، أو يقتدى بالخضر عليه السلام فيما يبدو ؟ قيل : لا ، قد ختم الله تعالى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة ، ولم يبق فى الأرض بعده إلا الملهمون والمحدثون . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد كان فى بنى إسرائيل محدثون ، فإن يك فى أمتى أحد منهم فعمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان ابن عباس رضى الله عنه يقرأ هذه الآية « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث » . والنبى دون

(١) سورة ١٨ ، آية ٨٢ .
(٢) سورة ١٨ ، آية ٦٥ .
(٣) سورة ١٨ ، آية ٨٥ .

ويعظم أموره ، ويذب عن دينه مالا يجمل ، ويدعو عباده ، فهو وليه ، ورب العزة وليه وهذا شأنه حتى يلقاه .

وبيان صفة هذا العبد موجود فى الآثار ، حدثنا إسماعيل بن نصر ، قال : حدثنا أبو المنذر القطعى ، قال : حدثنا عبد الواحد بن حمزة ، عن مولى عروة بن الزبير ، عن عائشة رضى الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الله تبارك وتعالى . وحدثنا إبراهيم بن المستمر البصرى ، قال : حدثنا أبو عامر العقدى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن ميمون مولى عروة ، عن عروة ، عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) قال : حدثنى جبريل عن الله عز وجل ـ دخل حديث بعضهم فى بعض ـ أنه قال : « ما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء فرائضى ، وإن عبدى ليتقرب بالنوافل حتى أحبه ، وما تقرب إلى عبدى بشىء من النوافل مثل النصح لى حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى به يسمع ، وبصره الذى به يبصر ، ويده التى بها يبطش ، ورجله التى بها يمشى ، ولسانه الذى به ينطق ، وفؤاده الذى به يعقل » . فما ظننا بعبد يعقل بالله ، وينطق بالله ، ويسمع بالله ، ويبصر بالله ، ويبطش بالله ، ويمشى بالله ، كيف يكون سعيه وآثاره منقلبة فى الدنيا .

قال له قائل : كيف يكون هذا ؟ قال : هذا عبد قد يسره ، وولى سياسته ، وحفظه ورعايته ، واستعمله ، فكان فى صنعه ، قد أمات فيه الشهوات ، ويسر عليه الصعاب ، وبسط له النور ، ومد له فى الأسباب ،

(١) زاد فى الأصل هنا : « عن جبريل » .

للحمولة ، فتراها الشهر والدهر موكفة تحت الحمولة ، فمرة مهزولة ، ومرة دبرة جائعة ، فى عنف وسير وكد عمل ، وهى دابة من الدواب ؛ فكذلك يصير العبد إذا راض نفسه بترك الشهوات ، وقطع الأسباب ، وانقطع عن اللذات ، ومجاهدة الهوى ، وامتناعه عما يريد ، حتى تذل وتنقمع ، فحينئذ ينقاد القلب والعقل ، وتستقيم فى سيرها على حد ماأمر به ، ولا تهاب أحدا فى أموره ، ولا تخاف فيه لومة لائم ، وإذا نابته النوائب خاطر بنفسه فى ذات الله ، وأذنه مصغية إلى مولاه ، وقلبه شاخص إلى مشيئاته وإرادته ، وإلى ما يبرز له من حجب الغيب ، فيقبله بالطوع والهشاشة ، والانطلاق إلى مايستعمله به ، وكيف ينقله من حال إلى حال ، فإن رأى نصرته عدّ ذلك منه فضلا ورحمة ، وإن رأى خذلانه فزع إليه ، وألقى نفسه بين يديه ، صارخا إليه ، مستغيثا به ، فهو ولى من أوليائه ، رفع باله عن نفسه ، فرمى بها إلى ربها ، فقال : أنت ربى ، وأنت خلقتنى لما تشاء ، لا لما أشاء ، ولا علم لى بشأنى ، وبما فعلت بى ، ووجدتك أرأف وأرحم بى منى بنفسى ، فرفعت بالى عن نفسى ، وألقيت بيدى إليك مسلما ، فاقبلنى ، فإنك قد بينت فى تنزيلك : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى [1] » ، قد ألقيت الخلق وراء ظهرى ، فنظرى إليك ، وقطعت الأسباب ، فتعلقى بك ، والله تبارك وتعالى قائم عليه ، يرعاه ويكلؤه ، ويؤيده وينصره ، ويقر عينه ، والعبد مشغول بربه ، ينظر إلى ملكه ، وينصر حقوقه ، ويحفظ حدوده ،

(١) سورة ٣١ ، آية ٢٢ .

كانت قبل ذلك هملا[١] فى الرعى ، تفعل ماهويت ، فهى قريبة القيمة من أشكالها من الدواب ، وإنما اختصها الملك وأطاب علفها ، وصانها عن رؤية الناس ، وجللها وعزلها عن الجهد والكد ، بترك مراعيها وهواها ونشاطها ، وأنسها بأشكالها ، واحتمالها التعب فى جنب مالكها ، وإعطاء المجهود بالصدق من نفسها ، ويقظة[٢] قلبها ، ونظرها بقلبها إلى راكبها ، ولو كانت إذا راضها لم تنقد لمولاها ، ولم تأخذ سيرها ، ولم تؤدب بأدبه ، فإن سيرها أبطأت فى السير ، وإن مال بعنانها امتنعت وشمست ، وإن مدّها جمحت فمدّت به ، وفى الموضع الذى كان يريد السير منها امتنعت من إعطاء مافيها من القوة ، وفي الموضع الذى أراد منها الوقوف حرنت ، فركبت هواها ، فجاءت بالقوة التى امتنعت منها هناك فى السير ، فإن قهرها باللجام ، فأمسكت عن الركض ، لم تمسك من أجل مولاها ، ولكنها أمسكت من كبح اللجام ، والألم الذى خلص إلى كبوحيتها ، فأشفقت على فيها وأسنانها ولسانها وحنكها ، فتركت حينئذ هواها ، فجعلت تدور ولا تستقر ، لأنها لم تسخ نفسها الدنيئة بطاعة راكبها ، ومع ذلك تبول وتروث فى مكانها ، وتبرك مكانها ، فإن استقبلها جلبة نفرت ، وتركت سيرها ، فرجعت قهقرى ، فربما كانت من خلفها بئر أو جرف تتردى فيها ، وتتكسر وتقتل نفسها ، فهذه دابة خسيسة ، فيها أخلاق السوء ، لاتصلح للملك ، وإنما تصلح

---

(١) أى مهملة متروكة سدى . وفى الأصل مهلا . تحريف .

(٢) فى الأصل : ويقظه .

رجع ، وآثر هواه على هوى موافقة نفسه ، فأجابه منقضا إلى حبله وسباقه [١] ؛ أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كمدا وعبرة وأسفا على فوت هذا من نفسه ، أن يكون طيره أسمع له وأطوع ، وأشد تحريا لموافقته ، وألزم لنصيحته من العبد المؤمن لربه ، ألا ترى إلى الدابة الخسيسة قيمتها قليلة ، تؤخذ من الدواب وقد اعتادت الرعى حيثما شاءت ، كيف يروضها الرائض على قبول السرج واللجام ؟ وكيف يؤدبها حتى تأخذ السير ؟ وكيف يؤدبها عند القناطر ، وفى مواضع الجلبة ، يريد أن يشيعها حتى لا تهاب هذه المواضع إذا بلغت ؟ وكيف تفتح أذنيها عند المسير ، وتميل يمينا وشمالا ، لا ينقلب عنانها ، فإن لم تجد قنطرة فأهوى بعنانها ، وثبت إلى الجانب وثبة مخاطرة بنفسها ، وان استقبلها جلبة لم تهب ، ولم تترك سيرها ، فتصير بحال تصلح للملك ، فإن قوّمت قوّمت بالدنانير رفعة لها ، لا بالدراهم ، فتجلل وتبرقع ، ويصفى لها العلف ، وتربط فى مربط الملك ؛ فإنما بلغت هذا المبلغ ، وسقط عنها جهد العمل وكده ، وحمل أثقال الحمولات ، وتخلصت من دبر الظهر ، ومشقة الاستعمال ، فإنها تركت هواها ، ورفعت بالها عن نفسها ، فإن خاطرت لم تبال ، وإن أتعبت نفسها لم تمل ، وإن اقتضاها راكبها السير [٢] والركض والوثب ، استفرغت مجهودها فى إعطاء كل ما يبتغى منها ، من غير جمح ولا حرن ولا تلكؤ ولا شمس ولا كسل ، ولا تركت أدبها ، وقد

---

(١) السباقان : قيدان فى رجل الجارح من الطير من سير أو غيره .

(٢) فى الأصل : للسير . واقتضى يتعدى إلى مفعولين ، تقول : اقتضاه دينه ، كما فى أساس البلاغة للزمخشرى .

أمر السموات إلى العرش لك معاينة ، تبصره بعينى قلبك ، كأنك تنظر إليه ، كما قال حارثة رضى الله عنه : يارسول الله ، كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون ، وإلى أهل النار كيف يتعاوون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم . عبد نوّر الله الإيمان فى قلبه . فإذا صنت قلبك فصنه بعد ماذكرنا عن النظر إلى نفسك إعجابا وفرحا ، بالغطاء لها انقطعت الأسباب منك ، وصفا لك طريقك إلى الله عز وجل بلا غبار ولا غيم ، فلا يغان على قلبك ، فإذا أصاب قلبك الغين استغفرت ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبى ، فأستغفر الله فى اليوم مائة مرة . وهذا الغين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كما يجده من بعده فيما نعلمه ، فليس نراه من طريق التخليط ، ولا من طريق العيب ، فقد كان قلبه أطهر ، وشأن أمره أعظم ، وأجل من أن يظن به .

ولهذا الباب تفسير أوضح من هذا ، نبينه فى آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، فى صفة القلب وخلقته وشرح اليقين ماهو .

أردنا أن نستتم ذكر النفس ورياضتها عدنا [1] إلى ذكر رياضة النفس . ألا ترى أن البازى كيف كان نفاره من الآدميين فى الجبال الشامخات ، فلما ربّ وأمسك على التربية ، أنس بصاحبه ، وأخذت التربية بقلبه ، واعتاد الكون معه ، فنزع عن النفار ، وترك همّ الطيران ، واطمأن إلى صاحبه ، حتى إذا أرسله وحثه على الطيران طار ، فأصاد وأمسك عليه صيده ، تحريا لموافقة مولاه ، ثم إن دعاه من الطيران

(١) فى الأصل : عندنا ، تحريف .

ويقال فى اللغة : راض ورض بمعنى واحد ؛ فمن قال رضّ ، فلما أدغم الألف فى الضاد ، فشدّد [١] ، ومن أبرز الألف خفف الضاد ، فقال راض ، فالرض الكسر ، فقيل فى الأشياء المكسورة رض ، وقيل فى الأخلاق المكسورة راض . فهذه النفس إذا فطمتها انكسرت عن الإلحاح عليك، ومنازعتك فى الأمور ، فإن النفس اعتادت اللذة والشهوة ، وأن تعمل بالهوى ، فإذا فطمتها عن العادة انفطمت ؛ ألا ترى أن الصبىّ إنما اعتاد ثدى أمه ، كيف سكونه بذلك الثدى ، إنما يحنّ إليه إذا فقده ، وكيف يفرح به إذا وجده ؛ فكذلك النفس الشهوانية ، فإذا فطم الصبى انفطم ، حتى لا يلتفت إلى الثدى بعد ذلك ، لأنه وجد طعم ألوان الأطعمة ، فلا يحنّ إلى اللبن ، كذلك النفس إذا وجدت طيب اليقين ، وروح قرب الله تعالى ، وحلاوة اختيار الله عز وجل له ، وجميل نظره لها ، لم تحنّ إلى تلك الشهوات .

قيل له : فبماذا يوجد اليقين ؟ قال : بطهارة القلب ، لأن اليقين طاهر ، فيطهر مكانه ومستقره .

قيل له : وما طهارته ؟ قال : ترك ما اضطرب القلب عليه ورابك منه تورعا ، دقّ أو جلّ ، ثم تطهره من التعلق بالشهوات ، والاشتغال بها ، فإذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك ، فصار لك مرآة بالتورع ؛ فكلما تفكرت شيئا من أمر الآخرة ، تمثل ذلك فى مرآتك ، حتى تصير الآخرة لك معاينة ، فإذا منعت قلبك عن حريق الشهوات ، كما تصون مرآتك عن حرارة أنفاسك ، تمثل فى قلبك الملكوت ، حتى يصير

(١) كذا فى الأصل . ولا ضرورة للفاء .

حدثنا بذلك الجارود بن معاذ رحمه الله ، عن على وعمير بن عبد الله ، فكانوا فى المصائب يرحمون ، فيكون مايرون ، وكانوا أعلم الناس بالموت ، وكنه مرارته ، وعظم شأنه ، وخطر المقدم على الله عز وجل ، فكانت قلوبهم ترق لما يرون ، ألا ترى أنه قال فى حديث إبراهيم ابنه : « إنما هذه رحمة ، ومن لايرحم لايرحم» . فكان يبكى ، ويعدّ ذلك رحمة ويحتسب بذلك البكاء على الله عز وجل ؛ ألا ترى أنه عاب من لا يرحم ، فكانت تلك منه رقة ، ومن هؤلاء القوم فتنة وصبابة . وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام ، أنه قال ليوسف عليه السلام : يابنى ، إنما حزنت عليك مخافة . وأيضا من طريق آخر قد يجوز أن يكون الله سبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق ، هيج منهم أشياء ، ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار .

وفى هذا كلام إلى غاية الطول ، قد بيناه فى كتاب « صفة القلوب وأحوالها ، وهيئة تركيبها » وما يتردد فى النفس فى صدور القلوب .

رجعنا الى ذكر « رياضة النفس » :

قال له القائل : وما رياضة النفس ؟ وكيف يكون ذلك ؟ قال : يسير على من يسره الله ووفقه . فأما الرياضة فهى مشتقة عربيتها من الرّض ، وهو الكسر ؛ وذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة ، وأن تعمل بهواها ، فهي متحيرة ، قائمة على قلبك بالإمرة ، وهى الإمرة بالشهوة ، فيحتاج إلى أن يفطمها ، فإذا فطمها عن العادة انفطمت .

فهل ميزت بين هذه الأشياء ، وهل اطلعت مطلع هذه المنازل ؟ أم أنت رجل تبعت شيئا من هذا العلم تفخر به ، وترأست به ، فأنت تريد أن تطفئ نور الله بفيك ، وتنسب الرسل إلى مالم يأذن به الله ، وتحير الخلق فى سبيل الله ، و يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون.

فأما فرح المتقين فبفضل الله ورحمته ، وعلى ذلك دلّ عباده ؛ وأما فرح الأنبياء والصديقين فبه تبارك اسمه ؛ ولذلك روى لنا عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : قرأت فى بعض الكتب : يامعشر الصديقين ، تنعموا بذكرى ، فإن ذكرى لكم فى الدنيا نعيم ، وفي الآخرة جزاء . وقال فى حديث آخر : « آثرتمونى على شهواتكم ، ورضيتم بى بدلا من خلقى ، فبى فافرحوا ، و بذكرى فتنعموا ، فوعزتى ماخلقت الجنان إلا من أجلكم . وحدثنا عبد الرحيم عن حبيب الفاريانى ، في حديث له ذكره عن حبيب العجمى رحمه الله ، أنه كان يقول [ما] [1] تفسيره : يارب فرحت حتى كدت أموت من الفرح ، مثلك لى رب وأنا عبدك : « خدايا عجب است ممكن أزشادى بميرم كه مراجو توخدائى » [2] ، وأما بكاؤهم فكانت الأنبياء عليهم السلام أرحم البرية ، فكلما ازداد العبد من الله تعالى قربة ، كانت له من الرحمة أكثر . وكذلك روى لنا عن ابن المبارك ، عن عبيد بن عمير ، قال : ماازداد العبد من الله تعالى قربة ، إلا كان له من الرحمة ماليس لغيره .

---

(١) زيادة ليست فى الأصل .

(٢) جاءت هذه الجملة فى الأصل هكذا : « خدايا عجب است كمن أز شادى عير كمرا جو تخداء » . وقد حققناها كما يرى .

فالأول هو غنى بالمال ، والثانى غنى بربه ومليكه ، فالأول فرح بالمال والأحوال ، والثانى فرح بالله ، ثم بفضله ورحمته ، عامة ملجئه ومفزعه إلى الله عز وجل ، فالأول قلبه مأسور بالأشياء ، قد ملكته حلاوة الأشياء ، والثانى سكن قلبه حلاوة قرب الله عز وجل ، فالأول قلبه بالأشياء ، وبالأشياء تعلقه ؛ والثانى مشتغل بالله وإليه منيب ، وبه متعلق.

ومما يحقق عندنا حال هذا الثانى ، ماأتت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن السلف الصالح من بعده ، حدثونا به عن ابن المبارك ، عن صالح المرى ، عن حبيب أبى محمد ، وهو العجمي رحمه الله، عن شهر بن حوشب ، عن أبى ذر رضى الله عنه ولم يرفعه ؛ وأما غير ابن المبارك فرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام : ياجبريل ، انسخ من قلب العبد الحلاوة التى كان يجدها بى ، فينسخها من قلبه ، فيصير العبد والها .

فإن اعترض فى هذا القول معترض بالإنكار، وقال هذا غير موجود فى الأنبياء والرسل عليهم السلام ، فقد جاءنا عنهم أنهم كانوا يبكون فى المصائب ، ويحزنون عليها ، ويجدون ألم الأشياء المكروهة ، ويفرحون فى المحبوب . فيقال له: ياعاجز ، وما يدريك من أى شىء بكت الرسل وحزنت ؟ وكيف كان همهم فى المكاره ؟ وكيف كان فرحهم ؟ ومن أى شىء فرحوا ؟ فرب فرح محمود ، وعلى ذلك حب الله عباده ؛ ورب حزن ممدوح أهله فى الدنيا والآخرة ، ونطق الكتاب بالثناء عليهم ، والبكاء على سبعة أنواع ، فما فوقها ، كل نوع منها من شيء غير الآخر ،

رضى الله عنهما : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين ، فافعل ؛ فإن لم تستطع فاصبر ، فإن الصبر على ما تكره خير كثير . واعلم أن مع العسر يسرا ، ومع الكرب فرجا » . حدثنا بذلك على بن حجر ، قال حدثنا بذلك إسماعيل بن عياش وعيسى بن يونس ، قالا : حدثنا عمر مولى غفرة ، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم المنزلتين فى هذا الحديث .

واعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضى ، وأن الراضى باليقين أدرك ذلك ، لأنه عاين عواقب الأمور ، وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم ، افتقده من حيث وضعه ، وهو لا يملك شيئا سواه ، فثار فى رأسه كالثيران ، من شدة الوجد لفقده ، حتى تبين ذلك في أحواله وفى وجهه ، وظهر اغتمامه بذلك ، فقال له رجل ملىء وفى بر صدوق : أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم دينارا [1] ؛ فسكن إلى قوله ، وسكن بعض ما به من الوجد ، فلا يخلو من الاغتمام ، ويضيق صدره بمضى هذه المدة ، فهو يصبر على كره ، إلا أنه مازج ما أطمع فيه ، الوجد الذى فى نفسه ، فخف ما به وهو كاره صابر ؛ ورجل آخر افتقد كيسا من دراهم ، وفى ملكه ملء بيوت من جواهر ، كل جوهر لا يدرى ما قيمته فما يتبين عليه فقد ذلك الكيس ، ولا يبالى به ، وهو فى ذلك كالذى افتقد فلسا وعنده كيس من دراهم ،

(١) فى الأصل « دينار » .

وأنجز له الوعد ؛ فقد بين هـذا الشأن فى آيتين من كتابه ، فقال : « وجاهدوا فى الله حق جهاده[١] » فأمر بمجاهدة النفس ، وفطمها عن أخلاق السوء ، عن أن يريد غير مايريد الرب جل وعلا ، فلو تركنا فى جميع أعمارنا لكان ، هذا أمرا هائلا عظيما ، لـكنه وعد فى آية أخرى أن يخلصنا من وباله ، ويؤدبنا ويبصرنا ، فقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين[٢] » . فهو هاديك ، وهو معك فى النصر والتأييد ، فرحمته منك قريب ، ممن يقويك[٣] ومن يدركك .

وإنمـا الشأن أن تجاهد فى بدء أمرك حق جهاده ، فإذا أنت قد ظفرت بالوعد الثانى قد أنجزه لك ، فإذا هداك السبيل ملأ قلبك نورا وكلاءة ورعاية حتى لاتزيغ ، فهو المنيب ، المقبل على ربه ، القابل لأمره بالهشاشة والسرعة . ألا ترى إلى قول الرسل الذين مضوا عليهم السلام ، حكى عنهم الرب تبارك وتعالى ، حيث قالوا : « ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا[٤] » . والتوكل هو أن تفوض أمرك إلى ربك ، ثم ترضي بمـا يصنع بك ، فعلموا فى قلوبهم أنهم أنما قووا على ذلك بما هداهم الله لسبيله . ومما يحقق ماقلنا فى شأن الراضى والصابر ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس

---

(١) سورة ٢٢ ، آية ٧٧ .
(٢) سورة ٢٩ ، آية ٦٩ .
(٣) فى الأصل : يقوى بك .
(٤) سورة ١٤ ، آية ١٢ .

أبصار قلوبهم ، فأبصرت فى لحظة أن هذا الأمر قد كان فى اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن ، وهو حكم الله علينا ، لم يكن فيهم من الشهوات ولا من الهوى من القوة مايثقل عليهم قبوله من ربهم ، وتلقوا أمره بالهشاشة وطلاقة النفس وبشر الوجوه ، فهم الراضون والصابرون ، قبلوا على كره من نفوسهم وجهد ، لأن شهواتهم حيـة قوية فى نفوسهم ، ويقينهم ضعيف ، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك ، ورأفته ورحمته عليهم ، ولم يكن لاختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة ، فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس ، فتذهب بالمرارة ، كما تجد المرارات فى الأدوية ، فتمزج بالعسل والسكر وما أشبه ذلك ، فيغلب عليه ، فتفقد تلك المرارات منه ؛ وإنما تقع حلاوة صنع الصانع فى قلبك على قدر حبك للصانع ، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره ، وكلما كنت به أعلم ، وكان هو أرفع منزلة فى الأشياء ، كان قدره عندك أعظم ، وهو إليك أحب ، ولذلك قيل : أشدهم حبا له أعلمهم به ، وأعرفهم له ، ومنه قول بديل العقيلى : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها » . رواه ابن المبارك ، عن سفيان الثوري رحمهما الله تعالى ، قال : كتب الحجاج بن فرافصة عن بديل رحمه الله .

فمن عجز عن الرياضة ، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته على حد الإيمان ، وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه ، على ثقل من نفسه ، وتنغيص وتـكدير من عيشـه ، وجهد من قلبه ؛ ومن راضها وأدبها استقامت فى السير ، وانفطمت عن أخلاقها ، وتداركه ربه بالنصر والمدد ،

فأهل الفهم راضوا أنفسهم وتدبروا ، فقالوا : كيف كيف لنا بأن لا نأسى على مايفوتنا من الدنيا ، وتمنوا إليه حاجة ، وطلبوا من أين يدخل الضرر عليهم ، فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج فى أنفسهم ، تحدثوا بها وتمنوها ، وطلبوها على التملك والاقتدار ، وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ، فلما فاتهم ، وجدوا الأسى والحزن على فوت ذلك ؛ ففهموا أن هذا إنما دخل عليهم من أجل أنهم تمنوها ، وأطمعوا أنفسهم فى إصابتها ، فوجدت النفس حلاوة وجودها ، وقوى الهوى ، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات ، وقطع المنى ، فخمدت نيران شهواتهم ، ففارقوا الهوى جهدهم ، لمجاهدتهم إياه ، حتى ذلل وانقمع ، وكلما بدا لهم أمر ، أو خطر ببالهم ، لم يتمنوا ولا أطمعوا أنفسهم ، وانتظروا مايبرز لهم من المسطور فى اللوح السابق قبل خلق السموات ، فسلموا لربهم ، وانقادوا لحكمته كالعبيد ، فعاشوا فى الدنيا بأرفع درجة ، وأكرم منزلة عند أنفسهم ، وأنعم بال وأقر عين بهذا الدين ، وماتوا بروح وريحان ، ولقوا ربا غير غضبان ، رضوا عن مولاهم ، فرضى عنهم ، فأيدهم فى الدنيا بروح منه ، وفى الآخرة قربهم ولطف بهم ، « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، أولئك « أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . استنارت قلوبهم باليقين ، فصارت أمورهم فى نوائبه [1] كالمعاينة ، كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر ، أو خوف أو أمن ، أو ذل أو عز ، أو بلاء أو نعمة ، حرقت

---

(١) فى الأصل : « نوايهم » .

أما تستحين أن تلقى ربك بهذه الحالة ، ولكنى قد فهمت لم اضطربت بعد أن أيقنت بضمان ربك ، إنك ذات شهوات ، فيك شهوة العز ، فأنت تهربين من الذل ، وفيك شهوة ألوان الطعام ، فأنت تهربين من البؤس ، فيك شهوة إدراك المنى ، فأنت تهربين من فوتها . وإنما تضطربين لأنك أردت أن يكون رزقك فى وقت ، وأراد ربك فى وقت آخر ، واشتهيت أن يكون على صفة ، وأراد ربك غير ذلك ، وأردت من وجه راحة ، وأراد ربك من وجه تتعبين فيه ، وأردت كثيرا ، وأراد ربك أقل من ذلك ، فأصبحت وأمسيت مخالفة لربك فى مشيئاته وإرادته ، فحملك ذلك على الشهوة ، حتى غلبتك ، فرمتك فى أودية المهالك ، فأقبلت بهلعك وجزعك على حطام الدنيا ، من سبيل الخبائث والأقذار والشبهات والأوساخ ، لسكون نفسك به ، ثم منعت حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام ، فقطعت الأرحام ، وباغضت العباد ، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين ، وهربت من إنصافهم ، وجفوت أهل الحرمة ، فأصبحت وأمسيت ظلوما غشوما ، ووعيد الله ينادى فى سمعك قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين [1] » . فهل تعرف مقدار الخردلة من الظلم ماهو ، وكيف يكون ؟ لو نجع فيك هذا الوعيد لطارت منك الشهوات ، ومات منك الهوى .

---

(١) سورة ٢١ ، آية ٤٧

ذات شهوات ، لا أبصر أمكنة الأشياء ، ولا أعرف أوقاتها ، ولا أعلم مقدارها، واشتبهت على كيفية أسباب وصولها إلى . فقال لها : أيتها النفس، إن كنت قد آمنت بربك ، فحقيق عليك أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتكفله ، أثبت عندك وأوكد وأقوى من الذى تبصرينه على المشاهدة ، لأن البصر ربما أخطأ ، وربما كان مسحورا ، يرى أنه كذلك وليس كذلك ، وقول رب العالمين أصدق وأبر ، وأوفى وأثبت من بصرك بعينك ، فلو أبصرت الشيء الذى يحويه ملكك اطمأننت وسكنت ، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة ، أرأيت لو كان لك ديوان فيه غرماء ملاء أسماؤهم، مكتوب فيه : على فلان ألف درهم ، وعلى فلان ألف دينار ، وعلى فلان عشرة آلاف درهم ، أكنت تطمئنين ؟ فإن وجدتها قد طابت وسكن اضطرابها لما وجدت فى الديوان من أسماء هؤلاء ، وهم أهل صدق ووفاء ، فانشر عليها ديوان رب العالمين ، وهو القرآن المجيد المنسوخ فى اللوح المحفوظ ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسول رب العالمين ، فقلب أوراقه ، حتى تقف بها على آية الرزق ، حيث يقول تعالى : «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها [1]» . ثم قل لها : أيتها النفس المطمئنة ، وجدت فى ديوانك على هؤلاء الغارمين ما وجدت ، وفرحت وأمنت الفقر فطبت ، فهذا فى المصحف قوله : « على الله رزقها » . أهذا أعظم شأنا ، وأصدق وأبر وأوفى ، أم الذى وجدت فى ديوانك ؟

---

(١) سورة ١١ آية ٦

ذلك فى تنزيله ، فقال تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها [١] »، أى من قبل أن تخلق تلك المصيبة ، ثم بين لم فعل ذلك ، فقال : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم [٢] » . فإن التأسى على الشىء الذى لم يقدر لك فى اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك ، والفرح بما آتاك يلهيك و يشغلك عن المعطى ، حتى تأشر وتبطر بما تعطى ، فتهلك ، و إنما المبتغى منك فى ذلك أن تلهو عن الغائب ، وتفرح فى الموجود الذى أتاك بالأهل الذى أتاك ، تم بفضله ورحمته عليك ، و إلى هذا ندبك فقال : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » [٣] . وقال تعالى فى شأن الرزق : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » . [٤] ثم قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . [٥] أى من يأكل تلك الحبة ومن يرزقها . فإن اضطربت نفسه على ضمانه لقلة اليقين وغلبة الهوى وحرارة الشهوات ، خاطب نفسه فقال : يا أيتها النفس لم تضطربين ؟ قالت : لأنى محتاجة ، وخلقت مضطرة ،

---

(١) سورة ٥٧ ، آية ٢٢
(٢) سورة ٥٧ ، آية ٢٣
(٣) سورة ١٠ ، آية ٥٨
(٤) سورة ١١ ، آية ٦
(٥) سورة ٦ ، آية ٥٩

استنار الإيمان فى قلوبهم ، سكنت القلوب ، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها ، وقر به منهم ، وقدرته عليهم . فهذا شأن الرزق والمعاش ، وفوضوا أمورهم فيما سوى المعاش إليه ، واتخذوه وكيلا ، لأنهم لما عرفوا بأنه رءوف رحيم منهم بأنفسهم ، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد بأنفسهم ، لأنه خلقهم فصورهم ، وركبهم وأحسن تقويمهم ، وسوى تعديلهم ، فلم يكن لهم بأنفسهم من العلم والتدبير ما دبر لهم ، وعرفوه ملكا قادرا قاهرا ، يفعل ما يشاء ، قد سبق علمه فيهم ، بما يكون فيهم ولهم وعليهم ، وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه فى اللوح المحفوظ ، ليكون أوكد فى قلوب العباد ، لأن سابق العلم غائب عن القلوب لا يدرى كنفسه ، واللوح قد خط بالقلم فيه أمر محدود ، وشخص مخلوق ، ويدرك بالقلوب معاينة ، فما عاين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعاينه القلوب ، ولا يمكن توهمه ، فخلق اللوح وأثبت مقاديرهم فيه ، لا لحاجة به إلى ذلك ، وليكون أثبت على القلوب ، لتسكن النفوس وتستقر على ماجرى القلم به ، فإذا سكنت النفوس ، تفرغت القلوب لعبادته ، وحفظ حدوده ، وإقامة أموره ، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب فيما يراد بها ، وما يكون وما يحدث ، لأنها قد أيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم ، وعند الإياس تسكن النفوس ، وإنما دعانا إلى أن نعبده ، ونقيم حدوده ، ونقيم فرائضه ، ونتجنب مساخطه ، ولنا قلب واحد ، فأثبت في اللوح أرزاقنا وسعينا ، وآثارنا وأحداثنا ، ومدة آجالنا ، وعامة أمورنا ، لتطمئن النفوس ، وتخلص القلوب من وساوسها ، فتعبده بفراغ ، وكل ذلك منه رحمة علينا ، وبين

السموات والأرض ، واستخرج ذريته من ظهره ، وأخذ عليهم الميثاق ، ثم ردهم إلى صلبه ، ثم نقلهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى دار الدنيا ، ليعبدوه ، وليوفوا له بما عهد إليهم يوم الميثاق ، بأن لا يشركوا به شيئا ، إلى آجالهم التى كتبها فى المقادير ، إلى أن تنقضى مدة الدنيا ، فيبعثهم للجزاء ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، وليجزى كل نفس بما كسبت ، ليكونوا فريقين ، فريقا فى الجنة ، وفريقا فى السعير .

فمن نوّر الله قلبه بالإيمان قويت معرفته ، واستنارت بنور اليقين ، فاستقام به قلبه ، واطمأنت به نفسه ، وسكنت ووثقت وأيقنت ، وأتمته على نفسها ، فرضيت لها به وكيلا ، وتركت التدبير عليه ، فإن وسوس له عدو بالرزق والمعايش ، لم يضطرب قلبه ولم يتحير ، لأنه قد عرف ربه معرفة أنه قريب ، وأنه لا يغفل ولا ينسى ، وأنه رءوف رحيم ، وأنه رب غفور رحيم ، وأنه عدل لا يجور ، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء ، وأنه يجير ولا يجار عليه ، فكما خلقه محتاجا مضطرا ، فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى ، لا من حيث يريد العبد ، على الهيئة التى يريد الرب ، لا على الهيئة التى يريد العبد ، وبمقدار ما يريد الرب ، لا بمقدار ما يريد العبد ، وفى الوقت الذى يريد الرب ، لا فى الوقت الذى يريد العبد ؛ فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا ، إيمانا به ، وقبولا له ، ولم يستقر ذلك الإيمان فى قلوبهم ، حتى إذا كان وقت ، الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت ، واشتغلت عن خالق الأشياء ، ومالك الملوك ، وأهل اليقين الذين قد

مطيع لله ، ثم إن الله تعالى دعاهم إلى أن يوحدوه قلبا وقولا وفعلا ، فمن قبل ذلك منه جملة ، فاستقرت المعرفة بأنه واحد ، فاطمأن به قلبه ، وترجم به لسانه عما فى ضميره ، وعزم على الفعل مائلا له ، فقد آمن به . وهذا كله من العبد فى وقت واحد ، فركب فيه الشهوات والهوى ، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم ، ويغوصون غوص النون فى البحر ، وجعل القلب ملكا على الجوارح ، فالشهوة تحرك البدن الساكن ، وتزعج القلب ، والشيطان يمنيه ويزين له ويعده ، والهوى يميل به ويقوده ، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان ، والتوحيد ظاهر على لسانه ، فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات ، وزين له العدو ، ومال به الهوى ، حتى يفعل الفعل الذى يخيل إليك فى الظاهر أنه لم يؤمن بعهد ، فهو موحد بالقلب واللسان ، ولكن لغلبة الشهوة وقوتها ، فبظلمة هذا الهوي ، ووسوسة هذا العدو والتزين ، غلب على القلب لا على مافى القلب ، مما فى القلب من المعرفة ، فالقلب به مطمئن ، ولكن صار مأسورا مقهورا ، وهو أبدا لمن غلب عليه وقهره .

فخلق اللوح ، وجرى القلم بمقادير الخلق ، وخلق السموات والأرض ، والظلمات والنور ، والليل والنهار ، والملائكة ، والجنة والنار ، والجن والشياطين ، والجبال والبحار ، والدواب والأقوات والمعايش ، وسائر الخليقة .

ثم خلق آدم عليه السلام ، فاصطفاه ، وجعله بديع فطرته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء ، وأبان فضله وكرم بنيه ، وحملهم فى البر والبحر ، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، وسخر له ولذريته ما فى

سائر الطاعات ، لأن فى الذكر مدحه ، وجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى جده » . حدثنا بذلك الجارود ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ؛ من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله عز وجل ؛ من أجل [1] ذلك حرم الفواحش » ، وندب العباد فى غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره ، ويذكروا عنه جميل صنائعه ، فقال تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها [2] » . فى كل ذلك يحثهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن ، وفى كل اسم له مدحه ، وجميل ذكره ، ودعاهم إلى توحيده ، فقال : « لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد » [3] . وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » [4] أى وحدون ، لأنك لا تكون له عبدا حتى يكون لك ربا لا شريك له ، فمن أشرك به خرج من نظام التوحيد ، فهو و إن كان له عبدا من طريق الملك ، فالعبد بنفسه لم يصير نفسه عبدا ، فيكون قد وحده وعبده ، و إنما أطاعه لأن الله تعالى أمره أن يطيع ، فأطاع مولاه بأمر الله تعالى ، فمن أطاع بأمر الله فهو

(١) زيادة ليست فى الأصل .
(٢) سورة ٧ ، آية ١٨٠
(٣) سورة ١٦ ، آية ٥١
(٤) سورة ٢١ ، آية ٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الشيخ الإمام العارف ، أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى ، رحمه الله تعالى :

إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار قدرته ، وتدبير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مرددا على القلوب ، وعلى ألسنة الخلق والخليقة ، لما علم فى غيبه ، فأنبأنا فى تنزيله ، فقال جل ذكره : «وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت [1] » ، فأعلمنا لم [2] خلق ، فقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [3] » . فقال أهل اللغة : إلا ليوحدون ، ومثل ذلك قوله تعالى : « إياك نعبد [4] » يعنى نوحد ، لأن في توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو ، إقرار له بالملك والقدرة ، وإضافة الأشياء إليه . فهذه الكلمة تنتظم المدح ، وأباح ذكره على كل حال ، تقديما له على سائر الحالات وأعمال البر ، وحصر ماسواه من الأفعال في أوقات مخصوصة ، مع ماذكر فى الكتاب ، وجرت به الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بتفضيل الذكر على

---

(١) سورة ٤٥ ، آية ٢٢

(٢) فى الأصل : لما .

(٣) سورة ٥١ ، آية ٥٦

(٤) سورة ١ ، آية ٤

كتاب

أدب النفس

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

فإذا فرحت به فقد تدنس بذلك الفرح ، فيصير غشاء عليه ، حجابا له من ذلك الفرح ؛ فكان أهل الصدق فى هذه الطريق يلزمون هذا الباب الذى وصفت ، فكل شىء تفرح نفوسهم به من وجود لذة ذلك الشىء كائنا ما كان ، من طعام أو شراب ، أو لباس ، أو أهل ، أو ولد ، أو أخ ، أو مؤنس ، أو أصحاب ، أو أمكنة ، أو عرض من عروض الدنيا ؛ فكانوا يتوقون الفرح لذلك ، فيأخذون من ذلك الشىء الذى لا بد لهم منه على الضرورة ، ثم يهربون من لذته ، خوفا على النفس أن تفرح بذلك ، فإذا دام على ذلك صاحبه ، فذلك تقوى الباطن . وأما تقوى الظاهر فهو حفظ الجوارح مع الخلق والملائكة .

فإذا فعل ذلك فأدى الفرائض لمواقيتها [1] وحددوها ، واستعان على النفس برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون ، والمواضع التى فيها النيران العظيمة ، من الأتون ومذاب جواهر الزجاج [2] ، فإن فى ذلك قمعا للنفس ، أورثه فعله بنفسه الغم ، ومن الغم الهم والأحزان . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عبد الله عز وجل بمثل طول الأحزان » .

تم كتاب الرياضة ، بحمد الله ومنه

وصلى الله على محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا

---

(١) فى ا : « بمواقيتها » .

(٢) فى ا : « الرضاس » .

وثناء الرب عز وجل ومدائحه ونجواه ، حتى تأنس بذلك ، وتألف الذكر ، حتى ينكشف الغطاء بعد ذلك ، فيألف ربه عز وجل .

وكذلك تجد الصبى قد ألف ثدى أمه ، حتى لايكاد يصبر عنه ساعة ، فإذا فطمته اشتد على الصبى ، وبكى وقلق ، فإذا دام الفطم [١] نسيه ، وأقبل على الطعام والشراب ، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدى ، وعاف [٢] ذكر [٢] اللبن .

وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السائمة ، لتؤدب وتعود الركوب ؛ ففى الابتداء تنفر عن اللجام والسرج ، فتشكل حتى تسرج ، وتلجم حتى تعتاد ، وتعلم السير حتى تصير أذنها إلى العنان ، وقلبها إلى إشارات الراكب بذلك العنان ، فإذا بلغ بها القنطرة وثبت وثبة لاتدعها تجور ، فتعتاد ذلك ، فليس فى كل مكان يوجد قنطرة ، فيعودها الوثب وسيرها فى جلبة [٣] الصناعين ، مثل [٤] الحدادين والنجارين [٤] فإذا نفرت من تلك الأصوات أو تركت سيرها ، أدبها حتى لا تنفر ولا تتحير ، حتى تصير أديبة [٥] سيورة .

فكذلك الآدمى ، يؤدب كما تؤدب هذه الطيور والدواب ، بالفطم عن عاداتها ، وكل شىء تجد النفس لذته فى وقت تفرح بذلك الشىء ،

---

(١) فى ا : « القطع » .
(٢ ــ ٢) فى ا : « وعافا ذلك » .
(٣) فى ب : حملة .
(٤ ــ ٤) فى ا : الحدادت والتجارت .
(٥) فى ب : « أذنية » .

الأسباب ، فكلما ازداد [١] العبد معرفة وعلما بر به عز وجل ، استنار قلبه وصدره ، وانتقص من الغفلة ، ومن هذه الخصال السبع كلها ، حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله ، فعندها كشف الغطاء ، وصار يقينا ، وزايله شرك الأسباب ، وماتت الشهوة ، وذهب الغضب ، وذهبت الرغبة والرهبة ، فلا يرغب إلا إلى الله عز وجل ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يغضب إلا فى ذات الله عز وجل ولله ، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل .

قال له قائل : صف لنا من رياضة النفس شيئا . قال : [٢] إن النفس [٢] إذا اعتادت اللذة والشهوة ، والعمل بالهوى ، أقبل على فطمها عن العادة فى كل شىء ، فكلما اشتد عليها فطم شىء فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تفطمها عنه ، حتى يصير قلبك حرا ، يألف مع الله عز وجل بره ولطفه ، فقد رأيت البازى كيف يلقى فى البيت ، وتخاط عيناه ، حتى ينقطع [٣] عن الطيران ، ويرى باللحم ، ويرفق به ، حتى يأنس بصاحبه [٤] ، ويألفه إلفا ، إذا دعاه فسمع صوته أجابه .

فكذلك النفس ، إنما تجيب ربها عز وجل فيما أمرها بعد فطامها عن عادات الأمور التى اشتهت ولذت ، فإذا [٥] فطمها ألزمها [٥] الدعاء ،

---

(١) فى ب : « زاد » .
(٢ ـ ٢) زيادة من ا .
(٣) فى ا : « ينفطم » .
(٤) فى ب : « صاحبه » .
(٥ ـ ٥) فى ا : فطمتها ألزمتها .

فالمعرفة رءوس أموالهم ، والحركات تجاراتهم ، ومرضاة الله عز وجل أرباحهم ، قال الله عز وجل : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم[1] » ، تقلبوا فى مرضاته ، وثووا فى جناته ، تحت عرشه فى جواره ، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته ، فأحرزه فى ذمته ، وحرم عرضه ودمه وماله ، وعظم حرمته ، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة ، وأقربهم وسيلة ، وأكرمهم عليه ، فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل ، حتى عرفه بالوجه ، فهو ساكن القلب ، حتى إذا عرفه بخصلة من خصال الشرف ، فوجد قلبه قد تغير له إلى التعظيم والإجلال ، فإن كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد ، مما وصف الله عز وجل بها نفسه ، من الجود والغنى ، والرأفة والرحمة ، والسماحة والكرم ، والمعرفة بالأمور ، والقوة والتدبير ، ومحاسن الأخلاق ، عظم شأن الرجل عندك ، حتى تهتم فى ذكره وأوصافه ، فمن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى ، وبأمثاله العلا ، كان أسبى لقلبه ، وألهج لذكره .

وابن آدم مطبوع على سبعة ، وهى الغفلة ، والشك ، والشرك ، والرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغضب . فهذه سبعة أخلاق ، فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحده ، ذهبت الغفلة ، وذهب الشك والشرك ؛ فهو يعلم ربه يقينا ، وينفى عنه الشرك ، وزال الشك عنه . ثم لما جاءت الشهوة ، فأظلم الصدر بدخانها وفورانها ، ذهب بضوء علمه واستنارته ، وتحير فى أمر ربه عز وجل كالشاك ، وظهر شرك

(١) سورة ٤٧ ، آية ١٩

وجل ، يسألونه السلامة ، وموكلون بوزن الأعمال ، وعرض الدواوين ؛ وموكلون بحمل[1] الأعمال من الخزائن إلى الموقف ؛ وموكلون بتشييعهم إلى الجنان من الموقف ؛ وموكلون فى الجنان بالخزانة : قهارمة ، وزوار ، وحملة هدايا من رب العالمين ؛ وجبريل صلى الله عليه وسلم موكل فى الدنيا بأداء الوحى ، وتبليغ الرسالة ، ويوم القيامة بوزن الأعمال ، وفى الجنة بالنداء من بطنان العرش ، للزيارة إلى رب العالمين .

فوجدنا الملائكة كلهم مسخرين لنا فى الدنيا ، ويوم القيامة ، وفى الجنان إلى الأبد ؛ فآدم عليه السلام خليفة الله عز وجل فى أرضه ، والملائكة جند الخليفة ، يعملون له ولولده ماذكرنا فى ولده ، فما خرّب ولده عمرته الملائكة ، وما أفسد ولده أصلحته الملائكة ، وما دنس ولده غسلته الملائكة[2] وطهرته .

وروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه قال : قالت الملائكة : ياربنا ، منا المقربون ، ومنا الصافون المسبحون ، ومنا الكرام الكاتبون ، ومنا ومنا ، جعلت الدنيا لبنى آدم يأكلون ويشربون ، فاجعل لنا الآخرة . قال : لن أفعل . فعاودوه بمثل مقالتهم ، فقال : لن أفعل . ثم عاودوه فى الثالثة ، فقال : لن أفعل ، لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ، كمن قلت له : كن فكان ، هم عبادى المقربون ، والملائكة عباد مجبورون ، ومكرمون بالعبادة والطهارة ، والآدميون خدم وتجار معاملون ،

---

(١) فى ب : « بعرض » .
(٢) زيادة من ا .

بالنبات ، وموكلون بالجبال ، وموكلون بالبحار ، وموكلون بالليل والنهار ، وموكلون بالحر ، وموكلون بالبرد ، وموكلون برزق الخلق صباح كل يوم ، وموكلون بالثلج ، وموكلون بأعمالهم : حفظة كتبة ، وموكلون بالحراسة ، وهم المعقبات ؛ وموكلون بالهداية على القلوب ، وموكلون بالهداية فى الأسفار بالاستقامة [١] ، وموكلون بإتمام الكلام ، فإذا قال : الحمد لله ، قال الملك : رب العالمين ؛ وإذا قال العبد : سبحان الله ، قالت الملائكة : وبحمده ، ويكتب ذلك لصاحبها [٢] ؛ وموكلون بصلاة الآدميين فى صفوفهم ، فكلما زاد رجل زاد معه ملك معه رحمة ؛ وموكلون بحجهم ، وفى مشاهدهم وموقفهم ؛ وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو ؛ وموكلون بجنائزهم للتشييع [٣] ، فهم أمام الجنازة ؛ وموكلون بليلة القدر ، ونزول الروح ، والتسليم على الآدميين ؛ وموكلون بالأعياد وحمل الجوائز ؛ وموكلون بالتثبيت للآدميين فى أعمالهم ؛ وموكلون بنزع الأرواح منهم ، ورفعها إلى الله عز وجل مع ملك الموت ؛ وموكلون بتشييع أرواحهم إلى العرض على الله عز وجل ، فى مقام العرض ؛ هذا كله فى الدنيا ؛ ثم إذا قامت القيامة ، فموكل بنفخ الصور ، وموكل بالبشرى للموحدين ، وموكل بحمل الكسوة للآدميين ، وموكلون بالرحمة ، ليقسموها عليهم ، وموكلون بجنبات النار ، ينادون ربهم عز

---

(١) زيادة من ب .

(٢) فى ب : « لصاحبه » .

(٣) فى ب : للتشييع .

والسابقون الذين وصلوا إلى الله عز وجل فى مقامه ، يترضى ربه عز وجل ، ثم يلحقه العمل على الأثر ، فالنيات متفاوتة ، فهؤلاء خدم .

وأما الملائكة عليهم السلام ، فإنما يعملون فى مصافهم ومقاومهم على الأبصار ؛ وإنما خص جبريل عليه الصلاة والسلام من بين الملائكة ، لأنه خادم ربه عز وجل ، لأنه بين يديه على ساقه يخدمه باختلاف الأحوال ؛ وأهل السموات فى مصافهم ؛ فالملائكة فى أعلى الخلق مكانا ، وهم سخرة للآدميين . فأما إسرافيل عليه الصلاة والسلام فقابض الوحى (١) ، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام ، وصاحب الصور ، يدعوهم إلى الحشر وقبض الجزاء . وأما جبريل عليه السلام فصاحب الرسالة . وأما ميكائيل عليه السلام فقابض أرزاق الآدميين ، والموكل بالقطر والنبات والرياح لمعاش الآدميين . وأما ملك الموت عليه السلام فقابض أرواحهم . وأما حملة العرش فموكلون بالاستغفار للآدميين . وأما الكوريون وأهل عليين فموكلون بالاستغفار والتضرع ، والبكاء على أهل الذنوب من الأدميين .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما أسرى بى ، سمعت دويا ، فقلت ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا بكاء الكوريين على أهل الذنوب من أمتك » . وأما أهل السموات فموكلون فى صلاتهم بالاستغفار ووفارة التقصير ؛ وآخرون موكلون بالرياح ، وآخرون موكلون بالسحاب ، وآخرون موكلون بالشمس ، وموكلون بالقمر ، وموكلون

---

(١) زيادة من ا .

حدثنا الفضل بن محمد ، حدثنا زريق بن الورد الرقى ، حدثنا أسلم بن سالم ، عن عبد الغفار بن ميمون ، عن عبد الملك الجزرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك الصلاة فى الصف الأول ، مخافة أن يؤذى مسلما أو يزاحم أحدا ، فصلى فى الصف الثانى أو الثالث ، أضعف الله عز وجل أجره على من صلى فى الصف الأول » . فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول ، والآخر بغفلته[1] وجهله سقط عن هذا الثواب . فهذا تفسير : « إنما أجزى الناس على قدر عقولهم » . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عنه . « لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله » .

وحدثنى بذلك أبى رحمه الله ، حدثنا جندل بن واثق الكوفى ، حدثنا عبد الله بن عمر الرقى ، عن إسحاق بن أبى فروة ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالصادقون المخلطون[2] قلوبهم محجوبة بالشهوات ، فنيتهم النهوض[3] بالقلب ، إذا نهضوا لم يجدوا منفذا ، فيقفون حيث بلغوا من الجو . وأما الذين فتح لهم فى الغيب ، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا ، حتى تبلغ مقامه ، فهناك يبتغى مرضاة ربه تعالى ، وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره ، فذلك النهوض هو نيته ؛

---

(١) فى ب : « بعقله » .
(٢) هكذا فى ا ، ب .
(٣) زيادة من ا .

فوقف فى الصف الثانى عن غفلة لم[1] ينل من صلاة الرب عز وجل شيئا ، ولا من هذه الرحمة التى وصفت عن ابن عباس رضى الله عنه ، فمن دخل فنوي أنى لو وجدت مكانا لدخلت فى الصف الأول ، فبهذه النية استوى هو بالصف الأول ، وله مثل أجورهم لما نوى ، كأنه فيهم . ثم إذا تمنى أن يدخل فى الصف الأول ، ونوى ذلك ، وامتنع وتحرج[2] مخافة أن يؤذى مسلما ، أو يضيق عليه ، يضاعف أجره على من فى الصف الأول ، بما اتقى أذى المسلم .

كذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن النية ، وفى شأن التقوى ؛ عن أبى كبشة الأنصارى رضى لله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أحدثكم حديثا فاحفظوه ، إنما الدنيا أربعة نفر : عبد رزقه الله عز وجل فيها مالا وعلما ، فهو يتقى الله عز وجل ، ويصل رحمه فيه ، ويعطى لله عز وجل منه حقه ، فهو بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله عز وجل علما ، ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فأجرهما سواء . وعبد رزقه الله عز وجل مالا ، ولم يرزقه علما ، فهو يتخبط فى ماله بغير علم ، فلا يتقى فيه ربا ، ولا يصل فيه رحما ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل . وعبد لم يرزقه الله عز وجل مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أن لى مالا عملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء .

---

(١) فى ب : « فلم » .
(٢) زيادة من ا .

فى كل عمل ، والنية [1] النهوض ، يقال فى اللغة . ناء ينوء ، أى نهض ينهض ، فالقلب يرتحل إلى الله عز وجل ، حتى يصل إلى سورة المنتهى إن كان له طريق ، فإن حبس فى الطريق فللتهمة احتبس ، ولسوء الأدب منع وانسد الطريق ، فعلى أى حال كان ، فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد . ويقول للجارحة التى تعمل ذلك العمل تحركى بذلك العمل فى حركاتك ، وأنفذى العمل على أثرى ، فإنى واقف بالباب ، أبتغى من ربى عز وجل مرضاته ، بما ينفذ إليه على أثرى ، فهذه النية .

ثم الناس فى نياتهم على درجات ، على تفاوت عقولهم ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عنه ، قال : « يعملون الناس الخير ويعطون أجورهم على قدر عقولهم » . وروي عن الله عز وجل قال : ياموسى ، إنما أجزى الناس على قدر عقولهم » . قال له قائل : صف لنا شيئا منه ، كيف تفاوت على قدر العقول ؟ قال : مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام ، فوقف فى الصف الثانى ، فقد سقط من درجة الصف الأول ، ودرجته أنه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول ، وجاء أن الرحمة تنزل على الإمام مائة رحمة ، فيأخذ من بحياله خلفه مثل ما للامام ، ثم الذى عن يمينه إلى منتهى خمسة وسبعين ، ثم الذى عن يساره خمسون ، فمن دخل المسجد

---

(١) زاد هنا فى ا : « هو » .

استرواحا إليه ، وبه فرحا ، حتى ملأها غما ، حتى طهر قلبه ، وتجلت فيه أنوار العزيز الماجد الكريم ، على ماذكرنا بديا[١] ، وعريت الملائكة من الشهوات والجوارح والأجسام والأجواف والضرورات ، فلا يحتاجون إلى طعام ولا شراب ، ولا كسوة ولا كن يستكنونه من الحر والبرد ، فنجت من فتن الآدميين وضروراتهم ، ومكايد العدو ، وأظهر خلقهم من التدبير بقوله « كن » . وعاملهم من ملك الجبروت ، [٢]ومقاومهم فى ملك الجلال[٢] ، وأظهر خلقنا من يده ، وعاملنا من ملك الرأفة والرحمة ، ومقاومنا فى ملك المحبة ؛ فالملائكة مجبورون على حال واحد ، لاينفكون ولا ينقلون عنها . والآدميون خدم بين يديه عز وجل ، يتقلبون من حال إلى حال ، وكل أحوالهم خدمة ، و إنما صار هكذا الأن المعرفة من الملائكة على الأبصار ، والمعرفة من الأميين على القلوب ، والقلب أمير على الجوارح ، فحركات الجوارح كلها من تقلب القلب بمشيئاته ، ومشيئاته بمشيئات ربه عز وجل ، فأى جارحة حركها فإنما محركها قلبه ، والقلب شاخص إلى الله عز وجل بوله فى تلك الحركة ، فتلك خدمة منه له ، مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق ، لأن الآدمى إذا قام منتصبا ، قام على خدمة ساقه ، فهو بالقلب قائم بين يدى ربه عز وجل ، ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح ، حتى تظهر على الجوارح ، فقيامه ونهوضه إلى ربه عز وجل بتلك الحركة هو خدمته ، وهو النية التى ينوى بها العبد

---

(١) زيادة من ا .

(٢ — ٢) زيادة من ا .

يتحول ذلك الفرح من يده إلى ذلك الشراب ، و إنما يزبد و يغلى بحرارة يده الملعونة ، لأنه خلق من النار ، فإذا شربه الشارب ، وقد تحول ذلك الفرح من يده فى ذلك الشراب ، دب [١] فى هذا الشارب ، وانكمن العقل ، لتدنس يده ورجاسته ، فشاربه يحتمل مرارته [٢] ، وذهاب عقله ، وتلف ماله ، وألم جسده ، والآفات التى تحل به ، فإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذى دب فيه ، حتى يصده عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة ، ووجد سبيلا إلى أن يحرش بينهم ، و يغري بعضهم ببعض ، فحرمه الله عز وجل ، لئلا يفرح بفرح هو حظ أبليس لعنه الله تعالى .

فكذلك أصوات المعازف والملاهى ، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده ، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذى بيد العدو ، فإذا مازجه وسمع الآدمى ، هاج بالفرح منه ، ودب فى جميع جسده ، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد ، فحرم الله عز وجل هذه المعازف ، للفرح الممازج من حظ العدو فيها ، وأطلق هذه الأشياء التى لاغنية بالآدمى عنها ، مما هو له [٣] غذاء أو معاش ، ثم حذره أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأشر و يبطر ، و يتعدى الحدود . فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه ، من كل حلال أو حرام ، ومن جميع أعمال البر ، مما يجد [٤] فى النفس [٤]

---

(١) فى ا : در .
(٢) فى ا : « من لذته » .
(٣) زيادة من ا .
(٤ ــ ٤) فى ا : « فيه لنفسه » .

من أبليس ، لامن هداية الله عز وجل ومعرفته ، وإنما وصل إلى غواية آدم صلى الله عليه وسلم ، بما استفرحوا بصوته من الفرح .

روى فى الخبر أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له [١] ، حتى كادت حواء تطير من الفرح ، فقالت ماهذا الصوت ؟ قال : لسرورى [٢] بمكانكما ، ثم قلب المزمار ، فناح نياحة أخذ بقلبها ، حتى امتلأت حواء خوفا ، فقالت : ماهذا الصوت ؟ فقال حزنا عليكما أن تموتا أو تخرجا منها . فهناك دلهما على شجرة الخلد ، لكى يأكلا منها ، فيخلدا فيها . ففى وقت الفرح دلهما على شجرة الخلد ، ولتخويف الزوال دلاهما بغرور ، حتى ذاقا الشجرة ، فلما صارا محجوبين بالهم ، فلما ذاقا عريا من اللباس ، وانكشف الغطاء عن الذنب ، فوليا [٣] فى الجنة هاربين ، فبالفرح ، خلص [٤] العدو إليه ، حتى أكل من الشجرة ، فصرعه . وحرم الله عز وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرح ، لأن أبليس لما سرق العنب من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، وافتقده نوح عليه السلام ، جاءت الملائكة ، حتى يقضى [٥] جبريل عليه السلام [٥] بينه وبين نبى الله صلى الله عليه وسلم على الثلث والثلثين ، فكل ما وجده نيا أو مطبوخا فيه بقية من حظه لم تأكله النار ، خاض فيه يديه بفرحه الذي أعطى ، حتى

---

(١) زاد فى ا : « فرحا » .
(٢) فى ا : « السرور » .
(٣) فى ا : « لنا » .
(٤) فى ا : « خلق » .
(٥ ــ ٥) زيادة من ب .

خلق الجنة ، خرجت الأغراس من باب الرحمة ، وخرج غرس العنب من باب الفرح ، فلذلك أوّل ماأكل آدم صلى الله عليه وسلم حين دخلها العنب ، فامتلأ فرحا .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : « ماأول مايأكل أهل الجنة من الجنة ؟ قال : العنب » : وأول ماأكل آدم العنب ، فامتلأ فرحا ، ووضع من الفرح فى تلك النار التى فيها الزينة بباب النار التى سميت شهوات ، فجعل ذلك الفرح حظ إبليس ، حتى يأخذه فيضعه فى الأشياء التى يغوى الآدميين بها ، فلما أضل أبليس المشركين بذلك الفرح ، دخل الأشجار وكل معبود من دون الله عز وجل ، فصوّت منها بذلك الفرح ، فكل من يتبع [1] صوته ، سبى ذلك الفرح قلبه ، حتى يجيبه إلى الشرك وإلى عبادته ، فهو يرى أنه يعبد الشجرة والوثن ، وإنما يعبد الطاغوت ، وأبليس طغى حتى بلغ غاية الطغيان ، فقيل طاغوت ، وذلك قول الله عز وجل : « كلّ حزب بما لديهم فرحون [2] » . فذلك الفرح لكل حزب من الذى أعطى أبليس ، حتى أورده على قلوبهم بصوته ، وذلك قوله عزوجل : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك [3] » . وصوته مع ذلك الفرح ، ولولا ذلك ماأجابوه ، فهم فرحون بأديانهم ، وإنما يفرحون بالله عز وجل ، ولكن غير مقبول منهم ، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح ، لأنهم تناولوه

---

(١) فى ا : « سمع » .
(٢) سورة ٢٣ آية ٥٣
(٣) سورة ١٧ آية « ٦٤ »

وجل أنه ناظر إليه فى هـذا العمل ، ولاهو [١] ذاكر لعرض الأعمال [١] يوم القيامة ، فهو يعمل على الغفلة على التجويز ، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذى فى صدره .

فجملة ما وصفنا من أمر السير إلى الله تعـالى أن يتقى فرح النفس ، أن يتركها حتى تفرح بشىء من أحوالها ، أو بتناولها من الدنيا وأعمال البر ، كلما ظهر فرحها نغص عليها بالمنع لها ، والانتقال عنه حتى يملأها غما ، فيذوب الفرح الذى يتأدى إلى القلب ، و يظهر النور ، ويظهر فى ذلك النور الفرح بالله عز وجل ، لأن ذاك النور يؤديه إلى صفات الله عز وجل ، و إلى عظمته وجلاله ، وجماله وكبريائه ، وبهائه وسؤدده ، وكرمه وجوده ، و بره ولطفه ، ومننه و إحسانه ورحمته ؛ فمحـال أن يعتقد القلب هذا الفرح حتى يدوم له ذلك ، وتزول عنه أفراح النفس ، ثم يصير فى فرحه بالله عز وجل حزينا ، لأنه محبوس عنه برمق الحياة فى دار الدنيا ، مشتـاق إلى ربه عز وجل ، قد أنس به ، واشتاق إلى لقائه ، واستوحش من الدنيا وأهلها ، [٢] وهمته ذكر الله [٢] ، وعبودية شهوته ، وموته راحته و يوم عيده .

وتحقيق ماوصفنا من ضرر [٣] فرح النفس ، أن الله عز وجل حرّم المعازف والخمر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما نطق به الوحى فى شأن الخمر ، وذلك أن الله عزوجل لما خلق الفرح ، وجعل [٤] له بابا ، فلما

(١ ــ ١) فى ب : « العرض لأعمال » .

(٢ ــ ٢) فى ا : « فنعيمه رؤى الله » .

(٣) فى ب : « صور » .

(٤) فى الأصل : جعل .

بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوبا بين يديه ويخيطه ، فلا يترك هذا الصانع من خفة اليد ، وحسن الابتداء ، ووجازة الفعل[١] ، وإحكام الخياطة وزينتها ، إلا صنعه بين يديه ، ويريد أن يتجلى بذلك عنده ، فيكتسب به جاها عنده ومنزلة ؛ والآخر رجل دعاه الملك ، وقال : اذهب بهذا الثوب فاقطعه وخطه قميصا ، واحمله إلى ، حتى أنظر إليه ، فلما غاب عنه ترك خفة اليد ، وحسن الابتداء ، ووجازة الفعل[٢] ، وإحكام الخياطة ، وأتقنه وزينه ، لأنه ذاكر العرض عليه ؛ والآخر دعاه الملك ، فقال : اذهب بهذا الثوب فاقطعه وخطه ، وأنفذه إلى فلان الراعي ، فلما غاب عنه رفع عنه باله ، فكيف قطعه وخاطه جوزه ، لأنه لم يشعر برؤية الملك ، ولا ذكر العرض عليه ، وإن مابه ارتفاع العمل ، فيقول : قد عملت ، وأخذ الأجرة ؛ وإنما جرأه على ذلك غفلته عن رؤيه الملك ، وعن العرض عليه .

فعمال الله عز وجل ثلاثة أصناف ، عامل يعمل على الترائى ، فلا يترك زينة ، ولامبادرة ، ولاسرعة ، ولا خفة يد ، ولاطهارة ، ولاتعظيما ، ولا وجازة ، ولا مسابقة إلا جاء بها ، يريد أن يتحلى بذلك عند مولاه عز وجل ، وعامل ليس له هذا الترائى ، وهو محجوب القلب عنه بالشهوات ، صادق فى ابتغاء مرضاته ، ذاكر للعرض عليه ، فلا يتزين ، ولا يبادر ، ولا يعظم ، ولا يسارع ، ولا يوجز ، ولا يسابق ، ولكنه يعمل على الأحكام وحفظ الحدود ، وإتمام الأمر بالأركان . وعامل لا يذكر رؤية ربه عز

---

(١) فى ا : « العقل » .

(٢) فى ا : « العقل » .

فى تلك البحار التى من وراء الدنيا ، إلى يوم القيامة ، فلا تستقر ، وما فى جوارها أبعد منها ، صارت ثمانى فلق ، فطارت هربا وفرقا ، حتى وقعت أربعة منها فى حرم الله عز وجل ، وأربعة فى حرم الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وخر موسى عليه الصلاة والسلام صعقا ، فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة ، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض ، وأبصرت العميان ، وصح كل مريض ، وبرىء كل زمين ، وانفتحت الأرحام ، فحملت كل عقيم ، وحلى كل أجاج » .

فأعلم فى هذا الحديث أن الشمس إنما ذهب ضوءها خشعة[1] لله عز وجل ، وخشوعها خروجها من سربالها التى[2] سربلت به من نور العرش ، فتهافت الضوء ؛ فكذلك النفس إذا أحست بالتجلى خشعت له عزوجل ، وخرجت من جميع شهواتها إلى الله عز وجل ، وتهافتت أفراحها ، وطرآت الشرور ، فصارت ذبلة كالميتة ، فتخلص القلب من ذلك ، وتخلص من أدناسها ، فوجد السبيل إلى اله عز وجل ، بما فيه من المعرفة والعقل ، فقرب[3] ثم قرب ، ثم زيد نورا ، حتى مكن له بين يديه ، فهو يعبده كأنه يراه ، وهو قول جبريل عليه السلام . « ماالأحسان ؟ قال : أن تعبد الله عز وجل كأنك تراه » . فحسن العبادة مع الترائى ، فإذا كان مججوبا فإنه يعبد الله ولا يلتمس الحسن والزينة فى العبادة ،

---

(١) فى ب : « خشعت » .

(٢) كذا فى الأصل والصواب : الذى .

(٣) فى ب : « قرب » .

ينكت حتى يسود القلب كله ، فإذا تاب ونزع صقل قلبه » . فإنما ينصقل بالأنوار حتى يتجلى كالمرآة المجلية ، فإذا صار كالمرآة تراءت[١] له الدنيا على هيئتها ، والآخرة على هيئتها والملكوت ، فإذا لاحظ فى الملكوت عظمة الله عز وجل جلاله ، صارت الأنوار كلها نورا واحدا ، فامتلأ الصدر شعاعا ، بمنزلة رجل نظر فى المرآة ، فأبصر صورة نفسه فيها ، وأبصر مابين يديه وما خلفه فيها ، فإذا قابل بها عين الشمس ، وقع الشعاع فى البيت ، فأشرق البيت من تقابل النورين : نور عين الشمس ، ونور المرآة[٢] ؛ فكذلك القلب إذا جلى فانجلى ، فلاحظ العظمة والجلال ، تجلت العظمة [٣] بين الحجاب [٣] لذلك القلب المجلى ، لأنه طاهر من أدناس المعاصى ، وأدناس الشهوات ، وأدناس الهوى ، والتقى النوران فامتلأ القلب شعاعا ، فهناك تموت النفس ويخشع القلب .

حدثنا سفيان بن وكيع ، وقتيبة بن سعيد ، قالا : حدثنا عبدالوهاب الثقفى ، عن خالد الحذاء ، عن أبى قلابة ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن الشمس والقمر لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنه إذا تجلى الله عز وجل لشىء من خلقه خشع له ؛ ولذلك لما تجلى لطور سينا ، صارت البقعة التى وقع التجلى عليها كالهباء المبثوث ، وما فى جوارها ساخت فى الأرض ، فهى تذهب

---

(١) فى ب : بدأت . وفى ا : ترأت .
(٢) زاد هنا فى ا : « من الحجاب » .
(٣ ـ ٣) زيادة من ب .

وهى تضحك وتقول : بخ بخ لك ياحارثة .

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : فإنما وصل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار ، ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هذا عبد نور الله عز وجل الإيمان فى قلبه » .

حدثنا أبى حدثنا محمد بن الحسن المكى ، عن عبدالعزيز بن أبى رواد ، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمثل حديث يوسف ، إلا أنه قال : « لكأنى أنظر إلى ربى عز وجل فوق عرشه ، يقضى بين خلقه » . فقد أعلم أن الايمان فى القلب ، ولا يستنير فى الصدر ، لإحاطة غيوم الشهوات ، ورين الذنوب بالقلب فى الصدر . حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة ، فإذا جاهدها وراضها حتى ينقطع دخان شهواتها ، وفوران الهوى ، جاءت الأنوار مددا للايمان الذى فى القلب ، فصار القلب ذا شعاع و إشراق فى الصدر .(١ فإذا أشرق فى صدره ١)، فذلك عبد نور الله عز وجل الإيمان فى قلبه ، فلما نوره استنار فى صدره ، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور ، مع الخوف والخشية والحياء ، فعملت الجوارح على الحدود والمقدار الذى أمر ، مع البهاء والزينة .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت(٢) فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا عاد نكت(٢) أخرى ، فلا يزال

(١ ــ ١) زيادة فى ب .

(٢) فى ا : « نكتن » .

بعد الموت . حدثنا عبد الجبار بن العلاء بن[١] يوسف بن عطية ، قال : سمعت ثابتا البنانى رحمه الله تعالى يذكر عن أنس رضى الله عنه ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله رجل شاب من الأنصار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله عز وجل حقا[٢] . قال : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقته ، قال : يارسول الله ، عزفت[٣] نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، فكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها . قال : أبصرت فالزم . عبد نور الله الإيمان فى قلبه ، فقال يارسول الله ، ادع الله لى بالشهادة ؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى يوما فى الخيل[٤] ، فكان أول فارس استشهد ، وأول فارس ركب ، فبلل أمه فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، أخبرنى عن ابنى إن يك فى الجنة لم أبك عليه ، ولم أحزن ، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت فى الدنيا . فقال : ياأم الحارث ، إنها ليست جنة ، ولكنها جنان ؛ والحارث فى الفردوس الأعلى . فرجعت

---

(١) لعله : عن . فإن عبد الجبار بن العلاء بن عبدالجبار الأنصارى هذا راو ، ويوسف بن عطية راو آخر (انظر خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ، فى أسماء الرجال للخزرجى) . ويؤيده قوله فى صفحة ٧٠ : « بمثل حديث يوسف » .

(٢) زيادة فى ا :

(٣) فى ب : « عريت » .

(٤) فى ا : « الجبل » .

منه حبـا ، فلم يشف الوصول إليـه بتلك القربة وذلك الفرح به ، دون رؤيته فى الجنة .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن من أمن الناس بوائقه ، والورع سيد العمل ، من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله عز وجل إذا خلا بها ، لم يعبأ الله بسائر عمله شيئا» . فذلك مخافة الله عز وجل في السر والعلانية ، والاقتصاد فى الفقر والغنى ، والصدق عند الرضا والسخط ؛ إلا أن المؤمن حاكم على نفسه ، يرضى للناس ما يرضى لنفسه ؛ والمؤمن حسن الخلق ، وأحب الخلق إلى الله عز وجل أحسنهم خلقا ، وينال بحسن خلقه درجة الصائم القائم وهو راقد على فراشه ، لأنه قد رفع لقلبه علم ، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه ، يعد نفسه ضيفـا فى بيته ، وروحه عارية فى بدنه ، ليس بالمؤمن حقا من لم يكن حملانه على نفسه ، الناس منه فى عفاء ، وهو من نفسه فى عناء ، رحيم في طاعة الله عز وجل ، بخيل على دينه ، حيي مطواع ، وأول ما [1] فات ابن [1] آدم من دينه الحياء ، خاشع القلب لله عزوجل ، متواضع قد برىء من الكبر ، قائم على قدميه ، ينظر إلى الليل والنهار يعلم أنهما فى هدم عمره ، لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا جرم [2] أنه إذا خلف الدنيـا خلف الهموم والأحزان ، ولا حزن على المؤمن بعد الموت ، بل فرحه وسروره مقيم

---

(١) فى ا : « فات ان » ، وفى ب « فار بنى » .

(٢) هكذا فى الأصل .

أو صيام ، أو قيام ، أو قعود ، أو ذهاب ، أو مشى ، أو لباس ، أو طعام ، أو شراب ، أو صاحب ، أو أهل ، أو ولد ، إلا فيما (١) لابد منه كالمضطر ، فإذا فعله على تلك الهيئة ، فعله مع الاهتمام والاغتمام ، أو مع الحزن ، لأنك تجد ذلك الفعل لله عز وجل خالصا ، لا تأخذ النفس من ذلك الفعل لله (٢) حصتها ، فأنت تفعل ذلك الذى لابد منه ، فتكسر عليها فرحها ونشاطها لذلك التخليط ، الذى ترى فى أمرك من قبلها ، حتى يدوم عليها الغم والهم . فجهاد الصديقين فى هذا أن يلقوا (٣) الفرح بشىء سواه ، حتى أوصلهم إلى نفسه ، بعد أن امتلأت صدورهم غموما وهموما ، فلما أوصلهم قربهم ، ومكن لهم بين يديه ، وملأهم فرحا ، فاشتاقوا إليه ، فقربهم ، فازدادوا شوقا كلما (٤) زادقربهم (٤) اشتد شوقهم فازدادوا حتى عطشت قلوبهم ، وامتلأت قلوبهم أحزانا ، حتى قطعوا الحياة والعمر بالأحزان . وروى في الخبر ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الأحزان والفكر » (٥) . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ماعبد الله عز وجل بمثل طول الحزن » . وحق لمثل هذا أن يحزن ، فإنه وصل بقلبه إلى رب ماجد كريم ، فرأى عظمة وجلالة ، وعطفا وبرا ، ونال

---

(١) فى ب : « ما » .

(٢) زيادة فى ا :

(٣) فى ا : « تلقوا » ؛ وفى ب « يقوى » .

(٤ — ٤) فى ا : « زادهم قربة » .

(٣) فى ا : « والسكدر » .

وروى أن داود عليه السلام قال : يارب ، أمرتنى أن أطهر بدنى بالصوم والصلاة ، فبم أطهر قلبى ؟ قال : بالهموم والغموم ياداود ، فإنما تدنس[١] القلب بالأفراح ، أفراح النفس ، فلا[٢] يطهر بمثل[٢] عمر نوح عليه السلام صوما وصلاة ، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية ، وإنما يطهر القلب مايزيل عنه أدناس الفرح ، وهو الهموم والغموم ، فلما منعت النفس شهواتها ذبلت ، وطفىء تلظى شهواتها ، وفوران دخان هواها ، فزالت أدناس الفرح من القلب ، بذهاب الفرح ، وطهر بالأنوار التى ولجت القلب ، بمنزلة سحائب تحجبك بظلمتها ، وبما فيها من الغبرة عن الشمس ، فلما انقشعت السحائب وتبددت ، أشرقت الشمس ، فعندها يصلح لقرب الله عز وجل ، قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة »[٣] . فالوسيلة والوصيلة بمعنى واحد ، إلا أن الوصيلة أن يوصل الشىء بالشىء ، فلما صار الأمر إلى ذكر الله عز وجل ، أخرجوه مخرج القربة ، فقيل وسيلة ، بدل بالسين صادا ، وبالصاد سينا ، فيكون له من الألفاظ أشرفها وأعلاها وأنزهها ، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوي ؛ فجماع التقوى ههنا[٤] هو ماوصفنا ، إلى أن يتقى الفرح فى كل شىء ، تجد النفس فى ذلك الشىء فرحا : من كلام ،

---

(١) فى ا : يندنس .

(٢ ـ ٢) فى ا : « يطهره مثل » .

(٣) سورة ٥ : آية ٣٥ .

(٤) زيادة فى ا .

فإذا أطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور [١] بالله عز وجل ، أشرق النور فيه [١] إلى الله عز وجل ، فقد رق عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها ، فى جنب ماعاين القلب ، وأورد من حياة على النفس ؛ فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عز وجل بوصول القلب ، فإنما قلنا إنه لايدع لنفسه قرارا على شىء من أعمال البر ، فكلما فرحت النفس بشىء من الدنيا ، أو بعمل من أعمال البر ، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها ، حتى يطهر القلب من أفراح النفس ، فهناك يرحم ، لأنه إذا وصل إلى هذه المرتبة ، بقى بلا أنس ولا فرح ، قد قطع عن نفسه أفراح الدين والدنيا ، فهو يحفظ جوارحه عن كل مانهى الله عز وجل ، وعن كل شىء من الفضول ، فيقيم الفرائض والسنن ، لايزيد عليها ، كفى بهذا شغلا ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أد ماافترض الله عليك ، تكن من أعبد الناس ؛ واجتنب محارم الله عز وجل ، تكن من أورع الناس ؛ وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مؤمنا » . فهذا المؤمن المستكمل المستحق [٢] لاسم الإيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاث ، فكفى بهذا شغلا ، فهذا عبد صدق الله عز وجل فى العبودية . وأماسائر الناس من غير أهل هذه الصفة ، فهم متخبطون [٣] بطالون ، يعبدون الله عز وجل على الشايد بود [٤] ، قد طابت أنفسهم ولذات أهوائهم .

(١ ـ ١) : زيادة فى ب .
(٢) زيادة من ا .
(٣) في ب : محبطون .
(٤) بالفارسية ، ومعناه « يمكن أن يكون » .

وإحسانه إليهم ، ومننه [1] عليهم ، فامتلأ القلب به فرحا ، وجرت الأفراح فى العروق ، حتى امتلأت فمتى تجد بعد ذلك أفراح الدنيا مسلكا إلى عروقه ، حتى يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسبيه ، فعندها يمد يده إلى ما أحل له من الطعام والشراب واللباس والنكاح ، والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه ، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذى دبر له ، فإن أخذ أخذ بحق ، وإن أمسك أمسك بحق ، وإن أعطى أعطى بحق ، وقلبه حر من رق النفس وفتنته ، ذلك الشىء [2] وذلك العمل بمنزلة رجل له ملء بيت دنانير يملكها ، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير ، لم يعمل فى قلبه فرح تلك العطية عملا يؤثر أثرا ، ولا يستبين ، وإن كان عنده تلك الصرة ، فسقطت منه حتى تويت ، لم يبد عليه ضرر ذلك ، ولا عمل على قلبه حزن ذلك ، ولا هو فرح بما أصاب ، ولا حزن على ما توى وذهب ، لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنانير ، التى هى ملء بيت ؛ فكذلك من فرح قلبه بالله عز وجل ، استغنى بالله عز وجل ، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا ، لأنه لا يستغنى بالدنيا ، إنما غناه بالله تعالى ؛ وهذا تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس » . فالنفس إذا استغنت ، فغناها بغنى القلب المشرق نوره فى صدره ،

---

(١) فى ا : ومنته .

(٢) فى ا : السوء .

والسائرين بالصدق إليه ، والطالبين له فى منازل القربة .

فينبغى أن ينفي كل فرح للنفس فيه نصيب ، حتى يصل إلى ربه تعالى ، فإذا وصل إلى ربه عز وجل امتلأ قلبه به فرحا وسرورا و يقينا، فكل شيء مد إليه يدا من دنيا أو آخرة لم يضره ، لأنه منه يقبل ، فإذا قبل منه حمده عليه وشكره ، وكانت جوارحه مستقيمة ، حافظة للحدود ، معتصمة بخوف الله عز وجل ، ولسانه ذاكر ، وبدنه شاكر صابر ، لأنه امتلأ قلبه بالله تعالى فرحا ، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكانا ، فإذا فرح بشيء من الدنيا ، فإنما يفرح ببر الله تعالى له بذلك وتقديره وتدبيره ولطفه ، ولايخون أمانته ، ولا يكفر نعمه ، ولا ينسى ذكره ، ولا يحدث عيبا ، فاستعمال جوارحه في ذلك الشيء بمنزلة رجل شرب ترياقا ، فامتلأت عروقه منه ، فإن مد يده إلى حية أو عقرب لم يضره سمهما ، لأنه لم يجد السم مسلكا إلى عروقه ، فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلكا إلى العروق ، فجمد الدم الذى فى العروق من ذلك السم فمات ؛ فكذلك أفراح الدنيا تجرى فى العروق مجرى الدم ، فتشمل الجوارح كلها ، فتأخذ القلب فتسبيه ، فإذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة التى ذكرنا ؛ عجل له ثواب رياضته ، فانشرح الصدر وانفسح ، فصارت الآخرة له كالمعاينة ، ولاحظ الملكوت بتلك العين عين الفؤاد ، فى فسحة ذلك النور المشرق فى الصدر ، فرأى شأنا عجيبا من عظمة الله عز وجل وجلاله ، ورأى من لطف الله عز وجل بالعبيد ، وبره بهم ،

يقطعها عن نفسه ، ومجالسة الإخوان ، والنظر فى الكتب ، (١ فهذا كله ١) أفراح النفس وجماعها (٢) .

وفى الجملة ينبغى أن يتفقد كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار ، من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشىء ، فيقطعه عنها ، وأنه كلما هويت النفس شيئا أعطاها فرحت به ، فينبغى له أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن تشربها ، فيمنعها فى تلك الفورة التى تشوفت لوجود بردها ولذتها ، حتى تسكن تلك الفورة ، وينغص عليها ، ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غما ، ويوقرها هما ، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء وبهذه الأحوال ، فكأنه يصيرها فى سجن ، فيتقرب إلى الله عز وجل بغمها وهمها ، فيعجل الله عز وجل له ثوابه نورا على القلب ، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها ، وعلى أخذ سلطانها ؛ ويستولى عليها وهى تذل وتذبل ، والعدو يخسأ ويتحير ، ويبطل كيده ومكره ؛ حتى إذا انتهى إلى أعمال البر ، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به ، يقطع عنها ذلك العمل ، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى ، منعها ذلك ، لأنها متى وجدت شيئا مفروحا به ، أنست واطمأنت إليه ، ومدت القلب إلى ذلك الأنس ، فمتى يصل القلب إلى الأنس بالله عز وجل ، والطمأنينة إليه ، والوله إلى عظمته ، وصفاء الحب له ، فهذا صدق المريدين ربهم عز وجل ،

(١ ـ ١) فى ا : فهذه كلها .
(٢) فى ا و ب : وجماعتها .

وجل ، فقد ترك سيره إليه ، ووقف على ذلك العمل ، فاقتضى منه صدق ذلك العمل ، فلم يوجد عنده صدقه ، لأن النفس تأخذ بحظها من ذلك العمل ، وهو أن تجد حلاوة حب الثناء والمدحة لذلك العمل ، فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون[1] بذلك منه ، ويشعرون به ، فيأنس بعلم الناس ، وملاحظة أعينهم إليه ، فلا يصفو له عمل ، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا ، فيقبل منه إذا رد الذى عرض له من ذلك قبول الصادقين ، لا قبول الصديقين .

فينبغى للمبتدئ فى هذا الأمر أن يبدأ بالصوم ، فيصوم شهرين متتابعين ، توبة من الله عز وجل ، وعد الله عز وجل فى تنزيله أن شهرين توبة من الله عز وجل لعبده إذا تابعهما ، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار ، فيطعم اليسير من الشىء يتجزأ به ، فإن كان فى اليوم مرارا كسرة كسرة ، فهو أجود له من أن يملأ بطنه ، فيصيرها أكلة ، وإنما ذلك محمود عند الأطباء ، فتقول أكلة واحدة كى يستمر بها ، وذلك لا يدخل فى هذا الباب ، لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم ، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة كسرة قوتا ، فيدارى نفسه على ذلك وبين الأيام دسما قليلا ، لئلا تهيج عليه الرياح ، وتضطرب العروق ، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه . وكذلك فى الكسوة ، يجتزىء بالدون وما لا بد منه . وكذلك فى سائر الأحوال التى للنفس فيها حظ من الفرح واللذة

---

(١) فى ا : يخينون .

فى كل جارحة على هذه الصفة . فالراعى يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسد منها ، على ما وصفنا ، فكذلك [١] الذي وقف بمجاهدته على نفسه ، يحفظ جوارحه على الحدود ، فى النظر ، والكلام ، والاستماع ، والأخذ ، والعطاء ، والبطن ، والفرج ؛ فإذا غلب أو زل أو نسى أو غفل ، عاد إلى مركز الطاعة بين يدى الله عز وجل بالاستغفار والتوبة ؛ فهذا عبد فى جهد الاستقامة ، وباطنه غير مستقيم ، لأن شهوات نفسه قائمة بين يديه ، فهو يمنعها بجهد ، ومتى ما غفل عنها زل وسقط ؛ فطريق هذا العبد إلى دار السلام ، ليس له وراء هذا مسلك . وأما الذى راض نفسه وأدبها ، ومنعها اللذات والشهوات ، حتى طهر قلبه ، واستوجب القربة بطهارة قلبه ، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا ، فتح الله عز وجل له طريقا إليه ، فسار سيرا لم يلتفت إلى دار السلام ، لأنه لما أخذ في الرياضة أخذه بصدق ، فلم يقف فى الطريق على شىء مفروح به ، ولو كان أسنى عمل من الأعمال [٢] ، لأنه إذا توقى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها ، أمد القلب بالنور ، وهان عليه رفض الشهوات ، حتى إذا انكمش في أعمال البر ، فرح القلب بتلك الأعمال ، فينبغى له أن يتوقى تلك الأفراح أيضا ، وينتقل من عمل إلى عمل ، ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل ، لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر ، اطمأنت إلى ذلك العمل ، فأذا اطمأنت [٣] إلى شىء دون الله عز

---

(١) فى ب : فذلك .
(٢) فى ا : من أعمال البر .
(٣) فى ا : اطمأن .

عند استعماله ، وهو أقوى اللذات ، وبه دخل النار أهله ؛ وقيل : يارسول الله ، مايدخل الناس النار؟ قال : الأجوفان : البطن والفرج ، وإنما خبأه عندعبده ، يعنى آدم عليه السلام ، لأنه (١ بدء الفرح ١) ، وهوسر الله عزوجل ، مقرون بسر القدر ، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها ، فأمر بسر العودة لذلك ، لأنه خلق مستور ، خبأه الله عز وجل عندنا ، وأمرنا بحفظه ، وسماه سوءة ، فحرص العدو على أن يهتك ذلك الستر ، حتى يبدو لنا ، وقبل ذلك كان مستورا عن آدم وحواء عليهما السلام ، وإنما بدا بالمعصية ، قال الله عز وجل : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما[٢] » .

فإنما صير كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا ، لأن كل جارحة ذات شهوة ، ومجمع الشهوات فى النفس ، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذن الله تعالى ، وبلغ بها الحد الذى حده له ، فهو مطلق له ؛ وإذا تعدى إلى المحظورصار ملوما ، قال الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم[٣] » . ثم أثنى عليهم فقال : « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين[٤] » . فأزال الملامة عن استعماله فى نكاح أو ملك يمين ؛ ثم قال عز وجل : « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون[٥] » . فذم من جاوز الحد ، وكذلك

(١ — ١) فى ا : به والفرج .
(٢) سورة ٧ آية ٢٧
(٣) سورة ٢٤ آية ٣٠
(٤) سورة ٢٣ آية ٥
(٥) سورة ٢٣ آية ٧

فهو قائم على أكمة مراقبا لتلك الأغنام ، فإن رعت[١] سما بادرها بالبازهر والسمن واللبن، حتى يردها إلى العافية ؛ و إن تردت فى جرف فتكسرت، عمد إلى ما تكسر منها ، فجبرها حتى تجبر ؛ و إن عرضت لها السباع ذاد عنها وطردها ، وما وجدها فريسة استلبها من مخالبها وأنيابها ، فداواها حتى تبرأ ؛ فوكل العبد بجوارحه السبع ليحفظها ، [٢]حتى لاتتعدى[٢] الحدود ، فإنه إذا تعدى الحدود ، وعصى الله عز وجل ، وخان الأمانة ، وظلم نفسه ، وسقطت منزلته، فبعد عن الله عز وجل ، فإذا بعد عنه تباعد عن الرحمة ، وصار مرفوضا مخذولا ، فأسره العدو ، وذهب به إلى النار، لأنه إذا أسره العدو ذهبت قوة القلب ، واستولت النفس ، فمرت فى كل شهوة جزافا ، فلم تبال حلالا ولا حراما ، فهلكت . فهذا شأن العبد فى حفظ الجوارح ، قال الله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ، ثم قال الله عز وجل : « أولئك فى جنات مكرمون[٣] » .

حدثنا صالح بن عبد الله ، حدثنا جرير ، عن ليث ، عن ابن أبى نجيح ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، قال : أول ماخلق الله من الإنسان فرجه ، فقال له : هذه أمانة خبأتها عندك ، فلا ترسل منها شيئا إلا بحقها ، فالفرج أمانة ، والبصر أمانة ، والسمع أمانة واللسان أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، والبطن أمانة ، فإنما بدأ بالفرج ، لأن جميع الأفراح تجتمع

---

(١) فى ا : رتعت .
(٢) فى ا : من أن يتعدى .
(٣) سورة ٧٠ آية ٣٥

فتلك الأفراح بالقلب ، وهذه الأفراح التى بباب النار فى النفس، (١ هو الهوى ، وهو ريح من نفس النار ١) ؛ والذى يورد هذه الأفراح على القلب ، هو نور المعرفة ونور العقل ، حتى يشخصا ببصر قلبك إلى نور العظمة ، فيرجع عليك مع الأفراح ؛ فالعباد موقوفون بين هاتين الحالتين ، فالإنسان منذ سقط من بطن أمه غذى بالشهوات ، وكلما نشأ نشأ معه فرح ، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة ، وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة ؛ فلما شب وعقل قامت عليه الحجة ، فاقتضى الوفاء بالإسلام ، وهو الأمر والنهى ، فأراده قلبا ، فاستعصت عليه النفس ، فاحتاج إلى مجاهدتها ، حتى يقيم أمر الله عز وجل ، ويفى بالاسلام الذى قبله ، وسيسعد (٢) غدا بجنته وجواره ، لأنه دعاه دعوة إلى الله عز وجل حين قال تعالى : « ففروا إلى الله » ، ودعاه إلى دار السلام حين قال : « والله يدعو إلى دار السلام » ، فصار أهل المجاهدة فرقتين : فرقة حفظت الجوارح ، وأدت الفرائض ، وسارت إلى الله عز وجل قلبا ، فلم تعرج (٣) على شىء حتى وصلت إلى الله عز وجل ، وفرقة حفظت الجوارح ، وأدت الفرائض بجهد وتعب ، (٤ فى كد ٤) محافظة وحراسة ، ومع ذلك تخليط وتهافت فى الخطايا ، وأدناس لا يستطيع أن يسلم منها ، بمنزلة راع أعطى سبعة أغنام ، ليرعاها فى سبعة أودية ، في تلك الأودية سموم قاتلة ، وجرف هارية ، وسباع ضارية ،

(١ — ١) زيادة فى ب .

(٢) فى ا : وسنعدا . وفى ب : وسعد .

(٣) فى ا تفرج .

(٤ — ٤) فى ا : وكل .

الله صلى الله عليه وسلم : « ما تحت أديم السماء إله يعبد من دون الله عز وجل ، أبغض إلى الله عز وجل من الهوى ». وقال عز وجل : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه[١] » . فلما اتبعوا الشهوات ، ولم يروضوا نفوسهم ، انقطعت القلوب عن محل الألوهية إلى الهوى ، ففرحت بما أورد الهوى عليها من دنياه ، فضاعت الحدود ، وذهبت العبودية ، وخانوا الأمانة ، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحى القيوم . وروى عن مالك بن دينار رحمه الله قال : مكتوب فى بعض الكتب : « إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين ، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله » . فهذه شهوات الدنيا إذا كانت مع الهوى.

فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدى الله تعالى فى ملك العظمة ، كان على سبيل نبى الله تعالى سليمان عليه السلام ، ملك الدنيا شرقها وغربها وقلبه أخشع القلوب لله عز وجل ، فلم يضره ، فقال تعالى : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب[٢] » . ثم قال تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب[٣] » فإنما ارتفع الحساب عنه ، لأنه تناولها وكان وله قلبه إلى الله عز وجل ، فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا : إن قلب العبد موقوف بين يدى الوله إلى محل العظمة ، وبين الوله إلى الهوى ، إلى محل باب النار ؛ ففى العظمة أفراح وزينة ، وبباب النار أفراح وزينة ،

---

(١) سورة ٤٥ آية ٢٣
(٢) سورة ٣٨ آية ٣٩
(٣) سورة ٣٨ آية ٤٠

الهوى ، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذى فى ذلك المحل ، فيرده من هناك إلى ما هاهنا ، فمن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله ، حجب عن الله عز وجل ، ونفى عن الوله ، ورجع قلبه لما رجعت النفس إلى هذا الوله الذى أولهه الهوى ، فخاب وخسر ، وكذلك[1] حذر الله عز وجل عباده فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله[2] » ؛ ثم قال : « ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »[2] . فلم يعب المال والولد ، وإنما عاب الوله بالمال والولد ، لأن الفرح والوله بالمال والولد يلهيه عن ذكر الله عز وجل ، إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته ؛ ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمال ، لزينة الدنيا وبهجتها ولذتها ، وبالفرح بالولد ، ليلعب به ويلهو ، ويتزين به ، ويستظهر به ويعتضد ، فصار المال والولد فتنة لحبه إياهما ، فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عز وجل ، ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته ، خرج ليعبد مولاه ، فيكون له جاها عند الله عز وجل بما يعبده ولده ، ولكنه أحبهما للتكاثر والتفاخر والتعاضد ، تزينا بهما عند أهل الدنيا ، كما قال الله عز وجل في تنزيله : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا[3] » . ثم قال عز وجل : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا[3] » . فمن أحبهما للزينة وفرح بهما ، كان فرحه للدنيا ، وكان وله قلبه إلى الهوى لا إلى الله عز وجل ، ولذلك قال رسول

---

(١) فى ا : ولذلك .
(٢) سورة ٦٣ آية ٩
(٣) سورة ١٨ آية ٤٦

فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه ، بقى قلبه مع الله عز وجل فى جميع الأحوال ، فهو أبدا واله بالله عز وجل ، والوله تعلق القلب به ، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه[1] أفراحها التى أورد عليها[1] الهوى من باب النار ، فقد صار وله قلبه إلى الهوى ، فالصائن أوله قلبه الله بأفراحه وحبه ، والتارك للصيانة أوله قلبه الهوى بأفراحه إلى باب النار ، ولجت تلك الزينة . فالكيس لما أبصر هذا التدبير من الله تعالى أنه خلق الآدمى هكذا ، وجعل فيه قلبا ونفسا ، ثم جعل للقلوب [2] محلا فى عظمته ، حتى تسير القلوب إلى ذلك المحل ، فيكون مقامها هناك حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره ، معظما لشأنه ، حافظا لحدوده فى جميع حركات جوارحه ، مؤتمرا بأمره ، متناهيا عن نهيه وإن دق ، مراعيا لتدبيره ، راضيا بحكمه ، وذلك كله لقوة ما يلاحظه من عظمته وجلاله بين يديه ، فيخشاه ويتقيه ، ويخافه ويرجوه ، ويستحى منه ويهابه ويعظمه ، وخلق بباب النار هذه الأفراح والزينة من النار ، وحفت النار بها ، ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان ، فمر بهذه الأفراح إلى نفس هذا الآدمى ، حتى تستعمل هذه الأشياء الملائمة لها ، اللينة فى ذاتها ، الناعمة[3] لجسدها ، بذلك الفرح[3] ، فابتلى عباده بهذين الفرحين ، فرح هناك بين يدى عظمته ومحله القلوب ، وفرح هاهنا يورده

(١ ـ ١) : زيادة من ب .

(٢) فى ا : « للطرب » .

(٣ ـ ٣) : زيادة من ب .

بذكر الله عز وجل حين يرى منته عليه ، وإنما يفرح بالله عز وجل من وصل إلى الله عز وجل ، ومن كان مرعاه بين يديه فى ملك من ملكه ؛ والواصلون إلى قرب الله عز وجل مرعاهم تحت العرش فى محل القربة .

فالأكياس صاروا إلى الله عز وجل فى هذا الطريق ، وتوقوا كل فرح ، فما [١] فرحوا بشىء من الدنيا ، أو بشىء من أعمال البر ، و[٢] قالوا : إنما فساد قلوبنا من فرح النفس ، لأن النفس إذا فرحت بشىء استولت على القلب ، فلم ينفذ له شىء ، فليس بنا التمييز بين الأعمال ، لأنا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال ، إنما نسير إليه بالقلوب نزاهة وطهارة ، فإنما يدنس القلب بأفراح النفس ؛ وصار القلب محجوبا عن الله عز وجل ، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شىء دق [٣] أو جل ، للضرر الذى يحدث عنه . ومن جهل هذا الباب توقى الحرام والشبهة ، وانكمش فى أعمال البر ، فهو فى الظاهر عامر ، وفى الباطن خراب [٤] ؛ لأن النفس شاركت [٥] القلب فى تدبير العمل ، فإذا شاركت أخذت نصيبها ، والهوى مقرون بالنفس ، فلا يتخلص [٦] العمل لصاحبه أبدا ؛ وإنما صار هذا هكذا ، لأن الله عز وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته ،

---

(١) فى ا : فسواء .
(٢) زيادة فى ب .
(٣) فى ا : « رق » .
(٤) فى ا : خرب
(٥) فى ا : يشارك
(٦) فى ا : يخلص

والحسد والحقد ، وطلب العلو ، وطلب العز والجاه ، وحب الرياسة ، وحب الثناء والمدحة ، والكبر والفخر ، والصلف والغضب ، والحمية وسوء الظن ، والبخل والمن والأذى ، والعجب والاتكال على العمل ، ودواه كبيرة ، فكم من فعل سيىء يظهر على أركان هذا مع هذه الدواهى ، ففساد القلب وخراب الصدر من الفرح بالدنيا ، وأحوال النفس كلما ازدادت النفس فرحا بهذه الأشياء قويت واحتدت ، واشتد سلطانها ، حتى تصير شرهة أشرة ، بطرة مستبدة ، فإذا هويت شيئا من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئا ، ولم يتورع عن الحرام ، وإن تورع عن الحرام لم يتنزه عن الفضول ، وإن تنزه عن الفضول ، يتناول ما احتاج إليه على غفلة ، وفقد النية والحسبة ، فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة ، وإن تناول على ذكر المنة ، تناول على فقد رؤية المنة واللطف والبر ، فهو أبدا فى نقصان ، فى أى درجة كان ، لأنه محجوب عن الله عز وجل ، وإنما حجبه عن الله عز وجل الفرح بغير الله عز وجل . فالفرح المحمود على ضربين : فرح بالله عز وجل ، وفرح بفضل الله ورحمته ؛ فالفرح بفضل الله وبرحمته ذكر النفس معه ، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه ، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس [1] فى ذكر مولاه ، فقال عز وجل فى تنزيله : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » [2] ، وقال تعالى فيما روى : « قل للصديقين بى فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا » . وإنما يفرح

---

(١) فى ا : نفسه .

(٢) سورة ١٠ آية ٥٨

الإنفاق ، ونومه عن الاستغفار بالأسحار . فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها ، بمنعها الشهوات التى أطلقت لهم ، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا مالابد منه ، كهيئة المضطر ، حتى ذبلت النفس ، وطفئت حرارة تلك الشهوات ، ثم زادوها منعا حتى ذبلت واسترخت ، فكلما منعوها شهوة آتاهم الله على منعها نورا فى القلب ، فقوى القلب ، وضعفت النفس ، وحيى القلب بالله جل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات ، حتى امتلأ القلب من الأنوار ، وخلت النفس من الشهوات ، فأشرق الصدر بتلك الأنوار ، فجلب على النفس خوفا وخشية وحياء ، واستولى على النفس وقهرها ، فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التى أعطيت القلوب ، بما فيها من المعرفة ؛ فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطانا ، فإذا أشرقت الأنوار من القلب فى الصدر ، وخلا الصدر[1] من دخان الشهوات ، أبرز القلب سلطانه ، فانقادت النفس وسلست ، وألقت بيدها سلما ، وانكمن العدو واختشى . فمن لم يرض نفسه على ماوصفنا ، وأعطاها مناها من الحلال ، وانكمش فى أعمال البر مستظهرا به ، عجل له ثواب أعمال البر فى العاجل نورا ، ففى الصدر ذلك النور ، وليس له من القوة مايمنع النفس من قضاء النهمة ، فيمضى فى الشهوات الحلال بلا نية ، فيتعطل ، ويبقى بلاحسنة ولا أجر ، ومعه فساد الباطن ، من حب الدنيا ، والرغبة والرهبة من المخلوقين ، وخوف فوت الرزق ، وخوف المخلوقين ،

---

(١) فى ب : القلب .

وذلك الفرح سم ، فمن شرب الترياق لم يضره السم ، و إنما صار سما لأنها زينة وفرح من جنس النار وباب النار ، وهو حظ إبليس ، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمى بهذه الأشياء الدنياوية ليبتليه ، ليفرح بهذا أو يستعمله معرضا لاهيا ، أو يقبل على ربه عز وجل وداره التى مهدت له ، فقد قال عز وجل فى تنزيله : « زين للناس حب الشهوات[1] » ، ثم ذكر النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ؛ ثم قال تعالى : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب[1] » . فإذا فرح العبد بهذا المزين ، الذى قد خلص حب تلك الزينة وشهوتها إلى قلبه ، وسماه الفرح ، فاته حسن المآب ، فقد وصف الله عز وجل حسن المآب ، فقال : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم[2] » ، ثم بين لمن هى ، فقال : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار[2] » . فوصفها بما فيها ، ثم بين المتقين من هم ، فقال عز وجل : « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار[3] » . وقال عز وجل : « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله[4] » . فمن شغله الفرح بهذه الزينة ، وملك قلبه حب هذه الشهوات ، فقد ألهاه عن ذكر الله عز وجل ، وفاته التقوى والصبر والصدق والقنوت ، وحجزه عن

---

(١) سورة ٣ آية ١٤
(٢) سورة ٣ آية ١٥
(٣) سورة ٣ آية ١٧
(٤) سورة ٦٣ آية ٩

والأكياس بحثوا عن أصل هـذه الأمور ، ووجدوه على ما ذكرنا ، فخلصوا إلى الرياضة ، فقالوا : إنا لما وجدنا النفس تأشر وتبطر ، وتستمر على الفرح ، حتى تصير بحال من امتلائها بالفرح بالأشياء ، كالسكران الذى لا يفيق من سكره ، فكل شىء نالت من الدنيا من حال أو عرض أو حال[١] ، مطلق لها أو غير مطلق فرحت ، فذلك الفرح سم يجرى فى العروق حتى يشتمل على الجسد ، ويمتلىء القلب من حلاوة ذلك الفرح ، ويصير أشرا بطرا ، لا يذكر موتا ولا قيامة ولا حسابا ، ولا شيئا من أهوال القيامة ، فذلك فرح يميت القلب ، وتستمر النفس عليه وتطيب ، وتقوى الشهوة وتحتد ، فهذا فرح مذموم ، ذمه الله عز وجل فى تنزيله ، فقال : « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع »[٢] . وقال تعالى : « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين »[٣] . ودل على الفرح المحمود ، وندب إليه فقال عز وجل : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون[٤] » . فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل على سائر العبيد ، فمن عليه بالمعرفة والعقل ، فاستنار قلبه ، وطابت نفسه ، فتعاونا على الشكر والحمد ، فاستوجب المزيد ، فقال عز وجل : « لئن شكرتم لأزيدنكم[٥] » ، ففرحه بذلك يجلب عليه المزيد ، فهذا الفرح ترياق ،

---

(١) فى ا : « بال » .
(٢) سورة ١٣ آية ٢٦
(٣) سورة ٢٨ آية ٧٦
(٤) سورة ١٠ آية ٥٨
(٥) سورة ١٤ آية ٧

يقول لامرأة أخيه وهى فى الدار معه : استترى منى ، وكان ذلك دأبه زمانا، ثم ترك ذلك ورمى بالقطن ، ورفع بصره إلى الناس ، وقال لامرأة أخيه : كونى كيف شئت ، فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة . وروى عن عامر بن عبد قيس رحمه الله تعالى أنه قال : ما أبالى امرأة لقيت أو حائطا . وروى عن بعض التابعين أنه قال : ألزمت نفسى الصمت بحصاة جعلتها فى فمى ، وكان إذا أكل أخرجها ، وإذا فرغ وضعها في فيه ؛ وكذلك إذا صلى ، فبقى فى ذلك أربعين سنة ، حتى لزمت نفسه الصمت ، فرمى بها . وروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر برجل يعبث فى صلاته بلحيته ، فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ؛ وإنما يخشع القلب بما يتجلى له من عظمة الله عزوجل وجلاله ، ويهيج من النفس الخوف والخشية والحياء منه ، فيوجل القلب ، فإذا خافت النفس وخشيت ، فوجل القلب واستحيا ، سكنت الجوارح ، وملك القلب جوارحه ، ووقف بها على الحدود. فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات، وحلاوتها وزينتها كالدخان والغيم ، فلم يستبن إشراق الأنوار ، وانكمنت الأنوار بما فيها من السرور والبهجة والزينة والحلاوة واللذة ، فلم يتجل فى الصدر نور العظمة والسلطان ، وافتقد صاحبه الخوف والخشية والحياء أن يعملوا [1] على القلب والنفس ، فأصابت النفس نهمتها بما زين لها العدو ، ومناها الغرور والأمانى الكاذبة ، يعدها سعة المغفرة ، ووفارة الرحمة ، وفيض العفو والتجاوز ، ويحدث نفسه بالتوبة ، ليتجرأ على الذنب .

---

(١) هكذا فى ب . وفى ا : « يعملها » .

ذكر ما يعرض لها ، ولم يقدر على تسكينها ، بل هى تغلب[1] القلب بما فيها من سلطان الفرح والزينة والشهوة ، فيصير القلب أسيرا للنفس ، بعد أن كان أميرا على النفس ؛ لأن إمارة القلب بالمعرفة ، وبما أعطى من هذه الأنوار التى وصفنا ، من نور العقل ، ونور الحفظ ، ونور الفهم ، ونور العلم ، ونور السكينة ، فأجمل للعبد فى الأمر ، فقيل له جاهد فى الله عز وجل حق جهاده ، فمن لم يرض نفسه قبل ذلك [2] ، فإذا جاهد[2] فربما غلب وربما غلب ، فلذلك يوجد العبد مرة طائعا ومرة عاصيا فى شهوة واحدة ؛ فأما الأكياس فراضوا أنفسهم ، فأدبوها ، فامتنعوا من الحلال المطلق لهم ، حتى هدأت جوارحهم ، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس ، فإذا استعملوها كان القلب أميرا قاهرا ، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل ، ويزين له ، ويحد له ، فيؤدبه بأدب الله عز وجل الذى أدبه ، فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تجاوزه ، فهو ينطق ، فإذا بلغ فى منطقه مكانا يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذبا ، ملك نفسه ، فامتنع وتورع ، لأن شهوة الكلام قد ماتت منه ، فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته ، وكذلك النظر ؛ إذا كان قد راض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر ، ملك نفسه عند الحرام ؛ وملك السمع ، وسائر الجوارح السبع . روى أن سهل بن على المروزى رحمه الله تعالى ، كان إذا مشى فى السوق حشا أذنيه بالقطن ، ورمى ببصره إلى الأرض ، وكان

---

(١) فى ا « تقلب » .

(٢ — ٢) فى ا « جاهدا » .

بعضها حلال ، و بعضها حرام ؛ فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال ، وبعضه حرام ؛ والنظر إلى الأشياء بعضه حلال ، و بعضه حرام ؛ والأخذ والإعطاء بعضه حلال ، وبعضه حرام ؛ وكذلك المشى ، والبطن والفرج كذلك ، و إنما هى شهوة واحدة لكل جارحة ، أحل للعبد إمضاء تلك الشهوة ، وقضاء تلك النهمة ، بصفة وهيئة ؛ وحرم عليه بصفة أخرى وهيئة ، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل ، و يطؤها بغير نكاح فتحرم عليه ؛ وكذلك كل شيء خرج من هذه الجوارح من الحركات ، وقد أخذ عليه يوم الميثاق ألا يعمل جارحة إلا بما أطلق له فى التنزيل ، وعلى ألسنة الرسل ، وقبل العبد ذلك يومئذ ، فأوثقه بما ضمن ، فاقتضاه الوفاء ، ولذلك سمى بالعجمية « بنده » لأنه أوثق بما قبل من الطاعة فى الأمر والنهى ، فإذا [1] وفى له بتلك [1] البندكية ، وفى له بالعهد ، وهى الجنة ، فقام العبد بمجاهدة النفس عند ما يعرض ذكر شهوة محرمة عليه ، فعلى العبد أن يجاهدها بقلبه ، بما فيه من المعرفة ، وتعلقه [2] بالمواعظ التى وعظه الله عز وجل ، من الوعد والوعيد ، وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة ، حتى يزجر النفس والعدو ، فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدبها ، ولم يعودها رفض ما ذكرنا بدءا ، من رفض هذه الشهوة المطلقة له حتى تذل وتسكن ، و يلزمها خوف الله عز وجل وخشيته ، لم يملك نفسه عند

(١ — ١) فى ا : « وفاه تلك » .

(٢) فى ا « ويعقله » .

فإذا جاهد العبد ، فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤدبها .

وأدب النفس أن يمنعها الحلال ، حتى لا تطمع فى الحرام ، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام ، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لابد منه ، حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لابد منه ، فقد ماتت شهوة الكلام ، فاستراح وقوى على الصدق ، فلا يتكلم إلا بحق ، فصار سكوته عبادة ، وكلامه عبادة ، لأنه إن نطق نطق بحق ، وإن سكت سكت بحق ، لأنه سكت مخافة الوبال . وكذلك شهوة النظر ، فاعتادت النفس لذة رمى البصر حيثما وقع ، من غير مبالاة ، فإذا لم يلزمها الخفض عما لابد منه ، وهو أن يكون خاشع الطرف ، خافض النظر ، اعتادت نفسه رمى البصر ، لتدرك الأشياء ، فإذا أرى الحرام لم يملك بصره ، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته ، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر ، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد ، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء ، واعتادت غض البصر وحفظه ، فإذا نظر نظر بحق ، وإذا غض غض بحق ، وصار نظره عبادة ، وغضه عبادة . وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج . فالمجاهدة ها هنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس ، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالا كان أو حراما ، حتى تموت تلك الشهوة ، لأن تلك الشهوة هى شهوة واحدة ، أحل له بعضها ، وحرم عليه بعضها ، بلوى من الله تعالى لعباده ، وتدبيرا لهم ، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم ؛ وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم ، فالمطلق حلال ، والمحظور حرام ، وذلك مثل الكلام ، فهى شهوة واحدة ،

النفس ، ورفض ماعزمت عليه ، فانقمعت النفس وذابت [١] ، وسكن غليان الشهوة ، وماتت اللذة ، وسكنت العروق ، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر ، وتخلص العبد ، فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شيء على الصدر ، وقد حرم الله عز وجل ذلك الشيء عليه ، وذلك أنه لما عرض الذكر اهتاجت النفس لما [٢] هاجها الهوى ، وأورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه ، وجعل له السبيل إلى صدره ليزين ، وتلك الزينة هي الفرح الذي وصفنا أنه بباب النار ، فأصله الفرح ، وحشوه الزينة ، وكلاهما من النار خلقا ، سميت شهوة لاهتشاش النفس ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حفت النار بالشهوات » ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه فى خطبته : « إن العدو مع الدنيا ، وأرصاده مع الهوى ، ومكره فى الشهوات » . فإنما يصير العدو إلى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها ، ويرصد الهوى الذى يهيج من الآدمى ، ويمكر به إذا اشتهت النفس ؛ وإنما صار مكرا لأن هذه الشهوات بعضها مطلق ، وبعضها محظور عليه ، فيمكر به فى المطلق له ، ليجره إلى المحظور عليه ، لأن النفس بلهاء ، فإذا مرت فى الحلال ، فتمكنت منه ، سلست فى الحرام ، إذا لم يكن فى القلب ما [٣] يقيد النفس عن الحرام ، ويقويها حتى لاتسلس [٤] ، وقوة القلب من النور ،

---

(١) فى ا : « وذلت » .

(٢) فى ا : « بما » .

(٣) فى ا : « من القوة بما » .

(٤) فى ب : « حتى تتسلس » .

ثم قال عز وجل : « ماجعل عليكم فى الدين من حرج »[1] . يعلمهم أنى حين ألزمت جوارحكم أمرى ونهيى ، لم أضيق عليكم حتى تحرجوا ، بل أبحت لكم ، ووسعت عليكم مالا يضيق عليكم ، حتى تفزعوا إلى الحرام ، ولم أحملكم فرائضى حملا تعجزون عنه ، ووسعت لكم فى كل فريضة مالم يضيق عليكم ، وكل شهوة منعتكم عنها ، أطلقت لكم من بعضها ، فوضعت على كل جارحة من هذه السبع حدا ، ووكلتكم بحفظها . والجوارح السبع هى اللسان ، والسمع ، والبصر ، واليدان ، والرجلان ، والبطن ، والفرج ؛ وجعلت مستقر هذه الشهوة فى البطن ، فإن اشتهى الكلام خرج سلطان تلك الشهوة إلى الصدر وإلى القلب ، والقلب أمير على هذه الجوارح ، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتها ولذتها على القلب ، وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها فى القلب ، وسلطان العقل وزينته وبهجته فى الدماغ ، تحير الذهن عن التدبير ، وخمد نور العلم [٢] فى الصدر [٢] ، فظهرت المعصية على الجوارح ؛ وإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها ، وسلطان العقل وزينته وبهجته ، احتد الذهن ، واستنار العلم ، وانتشر وأشرق ، وقوى القلب ، فقام منتصبا متوجها بعين فؤاده إلى الله تعالى ، وجاء المدد والعطاء ، وظهرت العزيمة على ترك[٣] المعصيه العارضة فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر

---

(١) سورة ٢٢ آية ٧٨

(٢ ــ ٢) زيادة من « ا » .

(٣) فى ب « تلك » .

وجل : « حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ».[١] فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان ؛ فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنهمة وهو كاره للفسوق والعصيان ، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة ، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد إبليس ، فتلك الكراهية موجودة فيه ، والشهوة غالبة عليه ، والكراهية من أجل التوحيد الذى فيه ، إلا أن القلب مقهور بما فيه ، والعقل منكمن ، والصدر ممتلىء من دخان تلك الشهوة ، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب ، لأن العقل قد غاب ، والمعرفة قد انفردت ، والذهن قد تبدد ، والحفظ مع العقل منكمن فى الدماغ ، والنفس قد قامت على ذنبها ، بما وجدت من القوة فى تلك الشهوة ، والعدو يزين ويرجى ويمنى المغفرة ، ويدل على التوبة ، حتى يجرئه قلبا ويشجعه .

فلما كان العبد بهذه الصفة ، أمر بالمجاهدة ، فقال عز وجل : « وجاهدوا فى الله حق جهاده ».[٢] ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد ، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه ، وبره ولطفه بهم ، فقال عز وجل : « هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج »[٢] ؛ يعلمهم أنه لو لم يجتبهم ، ولم يوقع اختياره عليهم ، ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة ، وكانوا أسارى فى يد العدو ، وحطبا للنار ، فأخبرهم أنه اجتباهم ،

---

(١) سورة ٤٩ آية ٧

(٢) سورة ٢٢ آية ٧٨

قلبه ، أى غمس قلبه فى ماء الرحمة حتى طهره به ، وهو قوله عز وجل « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »[١] ثم أحياه بنور الحياة ، وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاء ؛ فلما أحياه بنور الحياة تحرك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد ، ثم هداه بنوره ، وهو نور التوحيد ونور العقل ؛ فلما أشرق فى صدره ، واستقر الفؤادوهو القلب إلى ذلك النور ، فعرف ربه عز وجل بذلك ، فذلك قوله عزوجل : « أو من كان ميتا فأحييناه[٢] » ، أى بنور الحياة ، ثم قال تعالى : « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس[٢] » ، [٣] أي نور التوحيد يمشى من ذلك النور فى الناس[٣] ، ثم أوله قلبه بذلك النور إليه ، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره ، فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا الله ، وذلك قوله عز وجل : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » وهوقوله عز وجل : « ياأيتها النفس المطمئنة »[٤] ، فلما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التى زين العقل بين عينى الفؤاد توحيد الرب عز وجل ، وجدت حلاوة حب الله تعالى ، التى وردت على القلب مع نور التوحيد ؛ فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الذي فى نور التوحيد ، فعندها اطمأنت وسكنت إلى توحيده ، فشهدت بلا إله إلا الله ، وذلك قوله عز

---

(١) سورة ٢ آية ١٣٨

(٢) سورة ٦ آية ١٢٢

(٣ — ٣) زيادة من « ب ».

(٤) سورة ٨٩ آية ٢٧

قلوبنا غلف »[١] وقال تعالى : « بل قلوبهم فى غمرة[٢] من هذا » . وصار الفؤاد من المؤمن فى دخان الشهوات وغيوم الكبر ، فذلك غفلة .

ومن الكبر أصل الغضب والكبر فى النفس لما أحست بما ولى الله تعالى من خلقها ، فيبقى ذلك الكبر فيها . فهذه صفة ظاهر الآدمى وباطنه . فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد ، من كل ألف واحد ، وبقى تسع مئة وتسعة وتسعون ، رفع البال عنهم ، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين ، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال ، ورفض من لم يبال به ، فحابوا عن الحظوظ ، فلما استخرجهم ذرية من الأصلاب استنطقهم ، فاعترف له أهل الحظوظ من باله ، طوعا لقوله عز وجل حين قال : « ألست بربكم »[٣] . واعترف من خاب عن الحظوظ ، ومن لم ينل من باله بقوله : « بلى » كرها ؛ فذلك قوله عز وجل : « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها »[٤] ، فيصيرهم فريقين : عن اليمين وعن الشمال ، ثم قال تعالى : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، أى لا أبالى بمغفرتى أن تنالهم ؛ وهؤلاء فى النار ولا أبالى ، أى ولا أبالى بهؤلاء إلى أين يصيرون ؛ ثم ردهم إلى صلب آدم عليه السلام ؛ فيخرجهم فى أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة ، فكل من وقعت عليه جبايته واختياره له ، وصبغ

---

(١) سورة ٢ آية ٨٨
(٢) سورة ٢٣ آية ٦٣
(٣) سورة ٧ آية ١٧٢
(٤) سورة ٣ آية ٨٣

القدم ؛ فإذا دبت فى العروق ، ولذت النفس دبيبها وانفشاشها [١] فى الجسد ، وامتلأت النفس لذة ، وهشت إلى ذلك الشىء ، فتلك شهوتها ولذتها ، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد ، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب ، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها ، فإذا غلت الشهوة غلبت على القلب ، فيصير القلب منهوما ، وهو أن تقهر القلب حتى تمتهنه ، فتستعمله بذلك ، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها فى البطن ، وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن فى الصدر ، وجعل المعرفة فى القلب ، والفهم فى الفؤاد ، والعقل فى الدماغ ، والحفظ قرينه ؛ وجعل للشهوة بابا من مستقره إلى الصدر ، يفور دخان تلك الشهوات التى جاء بها الهوى ، حتى يتأدي ذلك إلى الصدر ، فيحيط بفؤاده ، وتبقى عينا الفؤاد فى ذلك الدخان ، وذلك الدخان اسمه الحمق ، قد حال بين عينى الفؤاد و بين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له ؛ وكذلك الغضب إذا فار ، فهو كالغيم يقف بين عينى الفؤاد حتى يصير العقل منكمنا ، لأن العقل مستقره فى الدماغ ، وشعاعه مشرق إلى الصدر ، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الجوف إلى الصدر ، امتلأ الصدر منه ، وبقيت عينا الفؤاد فى ذلك الغيم ، لأن شعاع العقل قد انقطع ، وحال الغيم بينه وبين الفؤاد ، فصار الفؤاد من الكافر فى ظلمة الكفر ، وهى الغلفة [٢] التى ذكرها الله تعالى فى التنزيل : « وقالوا

---

(١) فى ا : « وانهشاشها » .

(٢) فى ب : « الغفلة » .

به ؛ وإنما صار دفقا لقوة الفرح ، وهبوب رياحها ، وضيق المخرج ؛ فإذا افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفق . فهذا لعامة الآدميين . ثم خص المؤمنين بنور العقل ، فجعل مسكنه فى الدماغ ، وجعل له بابا من دماغه إلى صدره ، ليشرق شعاعه بين عينى الفؤاد ، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور ، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح ، ووضع نور التوحيد فى باطن هذه البضعة ، وهى القلب ، وفيه نور الحياة فحيي القلب بالله تبارك وتعالى ، وفتح عينى الفؤاد ، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب ، فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التى فيهما نور التوحيد ، فوحد الله عز وجل ، وعرفه ، وميز العقل تلك العلوم التى أعطى الذهن فى صدره جملة ، فيصيرها شعبا شعبا ، فصارت معرفة حين انشعبت ، فهذا عمل العقل فى الصدر .

والهوي أصله من نفس النار ، فإذا خرج ذلك النفس من النار ، احتمل من ذلك الخفوف [1] من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح ، فأورد على النفس . فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة ، هاجت [2] بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها [3] فى ذلك الوعاء ، وهى ريح حارة ، فدبت فى العروق ، فامتلأت العروق منها فى أسرع من الطرفة ، والعروق مشتملة على جميع الجسد ، من القرن إلى

---

(١) فى ا : « المخفوف » .
(٢) فى ا : « تلاحت » .
(٣) فى ب : « التى جاءت بها » .

ليكون فرقا بين النوعين . فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شيء ، أحست النفس بذلك ، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح ، والنفس مسكنها فى الرئة ، ثم هى منفشة فى جميع الجسد ، والروح مسكنه فى الرأس إلى أصل الأذنين ، ومعقلها [1] فى الوتين ، وهى منفشة فى جميع الجسد ، والروح فيه حياة ، والنفس فيها حياة ، فهما يعملان فى جميع الجسد لحياتيهما ، حتى تتحرك الجوارح فى جميع الجسد فى الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما ؛ والروح نور فيه روح الحياة ، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية ، وفيها روح [2] الحياة . ووضع الرحمة فى الكبد ، والرأفة فى الطحال ، والمكر فى الكليتين ، وعلم الأشياء فى الصدر ، وجعل مستقر الذهن فى الصدر ، ثم هو منفش فى البدن كله ، والذهن يقبل العلم جملة ، وقرينه الحفظ ؛ وجعل فى ناصيته الفهم ، وجعل له طريقا إلى عين الفؤاد ، فالحفظ مستودع العلم ، فإذا احتاج الفؤاد إلى شيء لحظ إلى الحفظ ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذى قد تعلمه . وجعل ماء الذرية فى صلبه ، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور ، فعرضهم على آدم صلى الله عليه وسلم ؛ ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق ، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه . ووضع الفرح فى قلبه ، وجعل مجراه إلى صلبه ، لتتأدى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب ، فتذيب ماء الصلب ، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء ، فيدفق

---

(١) فى ا « ومعلقها » .
(٢) فى ا « ريح » .

وخبز ملة[١]، لأنها خبزة قد ظاهرها أخري ؛ وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين ، و بابا [٢] فى الصدر [٢] ، وصير القلب بيتا له عينان وأذنان ، و بابا فى الصدر ؛ وجعل الصدر ساحة هذا البيت ؛ وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبدا ، وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله ، ومنه ينقسم مايخرج [٣] من المعدة من قوة الطعام الذى طحنته المعدة ، حتى صار دما طريا ، فجرى فى جميع العروق ؛ وألصق بأسفله بضعة أخرى ، فسماها طحالا ، وإلى جانب الأخرى سماها رئة ، ومسكن النفس فيها ، ومنها تتنفس النفس لحياتها [٤] التى فيها ، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين ؛ ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقا ، فيه ريح هفافة ، تجرى [٥] فى العروق [٥] مجري الدم ، وأصل تلك الريح من باب النار ، مخلوقة من نار جهنم ، لم يصل [٦] إليها سلطان الله وغضبه ، فتسود كما اسودت جهنم ، بل هى نار مضيئة حفت النار بها ؛ موضوع فى هذه النار الفرح والزينة ، وسماها شهوة ؛ وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها ، يقال ؛ اهتشت واشتهت ؛ الاهتشاش فى الظاهر ، والاشتهاء فى الباطن ، وكلاهما فى الحروف عددهما سواء ، إلا أنه قدم الهاء هاهنا وأخر هناك ،

---

(١) خبز الملة : مايخبز فى الملة ، وهى الرماد الحار يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج .

(٢ ــ ٢) زيادة من ب .

(٣) فى ا « مايجرى » .

(٤) فى ا « بحياتها » .

(٥ ــ ٥) زيادة من ب .

(٦) فى ا « يطرأ » .

يختلف بهما فى قطع المسافات ؛ وعينين بهما يشتمل على الألوان لذة وجهدا [١] ؛ وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبرا ؛ ولسانا يديره فى قبو حنكه إلى شفتيه ، ليتلفظ بنغماته من صدره إلى شفتيه ، مؤدية تلك النغمات معانى الأمور التى يعقل ، وتتردد فى صدره صور تلك الأمور ، فتصير تلك الصور حروفا مؤلفة ، فيبرزها بصوت يسمع به آذان المستمعين له ، حتى تصير تلك الأسماع قمعا لهذا الصوت ، فيتحول مافى صدر هذا من علم الأمور ، إلى صدر المستمع ، من طريق فم هذا إلى أذن الآخر ، فيكون قد أفرغ مافى صدره من صور الأمور ومعانيها بالحروف والصوت ، إلى صدر صاحبه . وجعل له منخرين للنفس والمشام ، ومعدة صيرها دار رزقه ؛ وباب هذه الدار متصل بالقبو [٢] ، وبابين فى أسفل جسده ، أحدهما مخرج للذرية ، والآخر مخرج الفضول والأذى ؛ وذلك أن العدو لما غره حتى أكل من الشجرة ، وجد السبيل إلى معدته بتلك الأكلة التى أطاعه فيها ، فجعله مستقره ، فتتن مافى المعدة لرجاسة العدو ؛ فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط والبول وريحهما ؛ ثم وضع فى جوفه بضعة جوفاء سماها قلبا وفؤادا ، فما بطن منها فهو القلب ، وما ظهر منها فهو الفؤاد ؛ وإنما سمى قلبا لأنه يتقلب بتقليب الله عز وجل إياه ، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، يقلبه بمشيئاته فيه ؛ وسمى فؤادا لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة ، ومنه يقال : هذا خبز فئيد ،

---

(١) فى ا : « وخبرا » .

(٢) فى ا : « بالقبة » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١ قال أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن الترمذى رحمة الله عليه ١)

الحمد لله رب العالمين ، ولى الحمد وأهله . أما بعد ، فإن الله تعالى خلق الآدميين لخدمته ، وخلق ماسواهم سخرة لهم ؛ فقال تعالى فى تنزيله : (هو الذي خلق لكم مافى الأرض جميعا) (٢) ، ثم قال : (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه) (٣) ، فجعل فى كل مسخر مايحتاج إليه هؤلاء الخدم ، وما يرجع نفعه إليهم ، وهم كلهم قانتون ، يؤدون (٤) السخرة إلى هؤلاء الخدم ؛ فأظهر خلقهم من القدرة بقوله « كن » ، وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده ؛ فعجن طينته ، وصوره بيده ؛ ثم جعله ذا أجزاء ، كل جزء منه يعمل عملا غير عمل الآخر ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهو روح الحياة ، ونفست الطينة ، فبدت (٥) النفس واستقرت ، وتنفست (٦) فى الجوف ؛ فجعل فى ظاهره يدين ذواتى أصابع ومفاصل ، يبسط و يقبض ؛ ورجلين موشجتين فى الوركين ، ذواتى ساقين ؛ وقدمين

جعلنا أرقام السور والآيات على حسب ترقيم « مصحف الملك » المطبوع بمطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة .

(١ — ١) زيادة فى ا

(٢) سورة ٢ آية ٢٩

(٣) سورة ٤٥ آية ١٣

(٤) فى ا : « مؤدون » .

(٥) فى ا : « فبدرت » .

(٦) زيادة من ا

كتاب الرياضة

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

(١) كتاب الرياضة ، ص ٤٢–٦٦

(٢) مختارات من كتاب الصفاء ، ٦٧–٧٩ ا

(٣) رساله بلا عنوان ، ٧٩ ب – ٨٤

(٤) أدب النفس

(٥) رسالة بلا عنوان

وقد كتب هذا المخطوط بالنسخ ، ولم يؤرخ أيضا ، وأغلب الظن أنه كتب فى القرن الثامن الهجرى ، (الرابع عشر الميلادى) ، وفى كل صفحه ١٩ سطرا . وكان كاتبه – على العكس من المخطوط الأول – على معرفة جيدة ، الأمر الذى جعله يتفادى كثيرا من الأغلاط .

وقد وضعنا فى تعليقاتنا الاختلافات الجوهرية فى المخطوطين ، ووجدنا من الخير ألا نملأ الصفحات بذكر أخطاء واضحة ، ترجع إلى عدم العناية أو عدم المعرفة .

ولا يسعنا إلا أن نعبر عن شكرنا للمستر شستر بيتي ، على وضعه المخطوط تحت تصرفنا ؛ وكذلك لمدير المكتب الهندسى بلندن (India Office) لسماحه لنا باستعمال مصورة مخطوط إستانبول المحفوظ بالمكتبة ، كما نشكر لاصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده عنايتهم الكريمة بطبع هذا الكتاب ، والسلام ؟

لندن فى أول جمادى الآخره سنة ١٣٦٦ — ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٧

ا . ج . أربرى ، على حسن عبد القادر

والخلقية خاصة . وقداعتمدنا فى الإخراج على هذين المخطوطين :

المخطوط أ :

وهو مخطوط بمكتبات إستانبول (مكتبة عاشر رقم ١٤٧٩) ويحتوى على مجموعة من رسائل الترمذى ، هى :

(١) كتاب العادة والنفس ، ص ١٣٢–١٥٨ الاعضاء

(٢) منازل العباد فى العبادة ، ص ١٥٩–١٦٧

(٣) كتاب العقل والهوى ، ص ١٦٨–١٧٣

(٤) كتاب الأمثال من الكتاب والسنة ، ص ١٧٢–٢٣١

(٥) كتاب حقيقة الآدمية ، وهو كتاب الرياضة ، ص ٢٧١–٢٨٦

وقد كتب هذه المخطوط بالخط الفارسى الواضح ، ولم يؤرخ ؛ ويغلب على الظن أنه كتب حوالى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، وتحتوى كل صفحة منه على ٢٧ سطرا . ويظهر فى هذا المخطوط عدم الاهتمام الملحوظ فى كتابته ، وأن الكاتب لم يكن عربيا ، وكل ما هناك أنه وجد أمامه الأصل ، فاجتهد فى نسخه ؛ وبالرغم من ورود أخطاء كثيرة — وضعنا بعضها فى التعليقات — كانت هذه النسخة مهمة لتصحيح بعض الأخطاء ، وأضافة بعض الزيادات التى لا توجد فى المخطوط (ب) .

المخطوط ب :

وهو مخطوط فى حوزة مستر شستر بيتى بلندن ، ويحتوى على مجموعة من رسائل الترمذى ، هى :

صوفى ظهرت عنده آثار التغذية من الفلسفة اليونانيه ؛ وبهذا مهد السبيل لأعمال الفارابي . وتعتبر فلسفة الترمذى فلسفة ثانوية ، فإنه كان يحرص على أن يجدد بشكل منسجم مع العقل ، عرض المحاولات الاعتقادية عند ابن كرام . . . والترمذى نظرى فى أسلوبه ، وقد انتهج هذا النهج ليلم فى جريدة واحدة بكل التجارب الصوفية الباطنية . . . ومذهبه فى «العقل» مذهب توزيعى ، يصنف المعرفة أصنافا بين أفراد المؤمنين ، وقد مهد بهذا السبيل لمذهب المعرفة « الفنوسية » عند ابن التسترى . ويشرح الترمذى نظرية الكسب كرد فعل للمرجئة . أما فى الناحية النفسية الصوفية ، فقد بين بإجادة « علم القلوب » ، ولكنه يفرق بين القلب والصدر ؛ والقلب عنده الأداة للفكر ، وهو فى نفس الوقت مادة من اللحم . وهو يدافع عن درجات الولاية ، وعلى الأخص من ناحية الإشراق العقلى ، بدون أن يسمح لتدخل الوجد الذى يغير من الجسم ، أو للحب الذى يغير من الإرادة . . . وكان لتلميذه أبى بكر محمد الوراق الترمذى ، أثر فى مدرسة الملامتية (١) »

٭٭٭

الإخراج :

ولما صح العزم على إخراج هذه السلسلة فى الآداب الصوفية . رأينا أن نبدأ الكتاب الأول منها بهاتين الرسالتين لإبي عبد الله الحكيم الترمذى ، وهما من أمهات كتبه ، التى توضح أهم تعاليمه فى الناحية النفسية ،

(١) L. Massignon; Essai sur les origines . . . . p.256-264.

فيؤد بها ، وإلزام كل جارحة من جوارحه السبع – وهى اللسان ، والسمع ، والبصر ، واليدان ، والرجلان ، والبطن ، والفرج – الفطام عن عملها حلالا أو حراما ، حتى تموت تلك الشهوة ؛ فإذا ترك الرياضة أحاطت فورات بالقلب الشهوات كالدخان والغيم ؛ ومن لم يرض نفسه فإذا جاهد فربما غلب وربما غلب . فأما الأكياس فراضوا أنفسهم فأدبوها ، فامتنعوا عن الحلال المطلق لهم ، حتى هدأت جوارحهم ؛ فإذا استعملوها كان القلب أميرا قاهرا ، فاستعمل تلك الشهوة بما يريد العقل، فهناك يملك نفسه.

ثم يقول : وهذا الذى وصفنا من تركك الشهوات ، وتجنبك اللذات ، ليس تحريم ما أحل الله لك ، ولكن تأديب لنفسك ، ورياضة لها . . . فإذا صفا قلبك من الهوى حينئذ تجد اليقين ، لأن اليقين نور يحذث على قلبك من نور معرفتك ، والقلب إذا أقبلت على الله وغلبه الهوى ، لم يشرق بالنور الأعظم ، لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم ، وهو اليقين – فإذا ذهب الهوى فنظرت له تلاقى النوران ، فأشرق فى صدرك ، فأبصرته عين قلبك ، فصار يقينا .

وهكذا يسوق لنا كل ما يتعلق بالرياضة ، مستشهدا بالقرآن والحديث ، ضاربا الأمثال المختلفة فى طرق التأديب ، فى أسلوب ممتع مقنع ، يحمل فى طياته معرفة واسعة بالحكمة والدين وأسرار النفس ، ووضع بهذا أساس الرياضة لمن جاء بعده .

ومن الخير أن نختم القول فى مذهب الحكيم الترمذى بهذا الإجمال الفريد ، الذى ساقه الأستاذ الكبير ماسنيون ، قال : « كان أول مسلم

فالقلب هو ملك على الجوارح ، وهو بضعة جوفاء من لحم ، فى بضعة أخرى هى الفؤاد ، وهو بيت له عينان وأذنان وباب فى الصدر ، وجعل الصدر ساحة هذا البيت ؛ وهو بمنزله قنديل معلق فى بيت ، وهو الصدر . والعقل فى الدماغ له باب إلى الصدر ، يشرق شعاع هذا العقل على عينى الفؤاد ، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمر ، ويميز بين الحسن والقبيح ، وهى المعرفة ، وحائط هذا البيت الصدر ، يشرق عليه نور المصباح ، فإذا رفعت شيئا بين الحائط والمصباح ، وقع لذلك الشىء ظل على الحائط . . . . . .

والنفس مسكنها الرئة ، ثم هى منفشة فى جميع الجسد ؛ ووضع بين القلب والرئة وعاء رقيقا ، فيه ريح هفافة ، تجرى فى العروق مجرى الدم ، وهى نار مضيئة ، موضوع فى هذه النار الفرح والزينة ، وسماها شهوة . فإذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء ، لعارض ذكر شىء ، أحست النفس ذلك ، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح ، فيفور دخان الشهوات ، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر ، فتحيط بفؤاده ، وتبقى عينا الفؤاد فى ذلك الدخان ، يحول بين عينى الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ...

ثم يشرح فى أثناء ذلك نظريته فى الرياضة والمجاهدة :

فالقلب مقهور بما فيه ، والعقل منكمن ، والصدر ممتلىء من دخان تلك الشهوة ، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب ؛ لأن العقل قد غاب ، والمعرفة قد انفردت ، والذهن قد تبدد ، والحفظ مع العقل منكمن فى الدماغ ، والنفس قد قامت على ذنبها ، بما وجدت من القوة فى تلك الشهوة . . .

فلما كان العبد بهذه الصفة ، أمر بالمجاهدة ، والجهاد أن يروض نفسه

للصوفيه وتعاليمهم ، حتى شيوخهم غير المعروفين أو المشهورين ؛ وكذلك أبو بكر الكلابذى فى كتابه « التعرف ، لمذاهب أهل التصوف » ، لم يذكره الحكيم الترمذى ، مع أنه عقد فصلا خاصا عن النبوة والولاية ، جاء فيه بمثل ماجاء عند الهجويرى من النتائج (١) ؛ ثم أبو القاسم القشيرى ، ذكر الترمذى ولكنه لم يعطه إلا قليلا مما يستحق ؛ وهذا يجعلنا نشعر بأن السبب فى أهمال هؤلاء الكتاب الكبار ، الذين كتبوا عن الصوفية فى القرنين الرابع والخامس ، لم يقتنعوا بحال الترمذى ، ليتخذوا منه دليلا على خطئهم فى الدفاع عن الصوفية ، ضد أولئك الذين يرونها مخالفة للكتاب والسنة .

وإذا كان الترمذى قد وضع «للولاية» قواعدها وأصولها ، وهو الأمر الذى بنى عليه الصوفية نظمهم فى ذلك بعد ، وكان له أثر هام فى تعاليمهم فى الولاية ، فهو قد وضع لهم قواعد « الرياضة النفسية » ، ورتب لهم أصولها الظاهرة والباطنة ، ورسم للصوفية الطريق لأدب النفس ورياضتها ، وتبعوا ذلك بعده شبرا ، بشبر وذراعا بذراع .

ففى هاتين الرسالتين : « الرياضة » و « أدب النفس » ـ وهما بطبيعة الحال تحتاجان إلى بحث أدق وأوسع ، لايتسع له هذا المقام ـ حاول شرح أجزاء الجسم الإنسانى ، وربط بكل جزء منها عملا من أعمال النفس والخلق ، وشرح الاضطرابات النفسية ، والخصال الخلقية ، على أساس الارتباط بين أعمال الجوارح بعض و بعض .

---

(١) كتاب التعرف (طبعة أربرى) ص ٤٣ ـ ٥١) .

الولاية مفتوح ؟ هذه هى نقطة الخطر والغموض فى هذا المذهب ، بناء على هذا المعنى .

أما إذا أردنا بالخاتم الآخر ، كما هو المتبادر ، فلا يكون محمد خاتم الأولياء ، مادامت الولاية مستمرة بعده ؛ ولكن من عسى أن يكون خاتم الأولياء غير محمد ؟ ألا يجوز أن يكون هذا الخاتم أفضل من خاتم الأنبياء ، مادامت الولاية فى طبيعتها أفضل من النبوة ؟ وهذا أيضا موضع خطر بالنسبة لهذا التفسير الأخير .

وأيا كان الأمر ، فليس من شك فى أن هذا المذهب كان محل نقاش وجدال فى الأوساط العلمية وغيرها فى بلده ، وكان سببا لطرده منها ، وما قاله السلمى من عدم فهم الناس له ، إنما هو حسن اعتذار ، وإلا فالموضوع مهما قلبناه على أية ناحية من نواحيه ، يسوق إلى نتائج لا يوافق عليها الرأى العام الإسلامى ، سواء فى ذلك (١) تفضيله الولاية على النبوة ، أو (٢) اختصاص الولى بما ليس عند النبى ، أو (٣) القول فى الخاتم[1] .

وبالرغم من أن هذا المذهب كان له أثر بعيد فى التصوف الإسلامى ، فى تحديد الولاية ودرجات الأولياء وما إلى ذلك ، بالرغم من هذا ، إنه من الغريب أن مثل أبى نصر السراج فى كتابه « اللمع » ، لم يذكر مرة هذا الإمام ، ولم يسق إلينا قولا واحدا من أقواله ، وكتابه كما هو معروف مرجع

(١) راجع أيضا « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى مادة « ولى » و « صوفى » و « إنسان » — وبالرغم من هذا الإبهام الترمذى معترف بأن محمدا خاتم الرسل ، يقول فى أدب النفس : « قد ختم الله تعالى بالرسول الرسالة ، ولم يبق فى الأرض بعده إلا الملهمون والمحدثون » .

والنبى معصوم من المعاصى ، والولى محفوظ من الإصرار على المعاصى ؛ كما أن النبى ظاهر الحال ، ولكن الولى مستور الحال ، والكون ناطق بولايته ؛ والنبوة مختومة من حيث الإنباء والإخبار ، ولكنها دائمة من حيث الولاية والتصرف ، لأن نفوس الأولياء حملة تصرف ولايته ، يتصرف بهم فى الخلق بالحق إلى قيام الساعة .

وكما أن النبوة تمثل دائرة متألفة فى الخارج من نقط وجود الأنبياء ، كاملة بوجود النقطة المحمدية ، فالولاية أيضا دائرة متألفة فى الخارج من نقط وجود الأولياء ، كاملة بوجود النقطة التى تختم بها الولاية . فالنبوة لها خاتم ، يكملها والولاية كذلك لها خاتم يكملها .

هذا هو السبب فى وجود الخاتم . وبقى أن نعرف ما هو الخاتم ؟ وظاهر كلام الترمذى أن الخاتم مقام يستحقه الولى حيث (يناوله مفاتيح الكرم ، وخزائن المنن) والمفروض على هذا أن يكون محمد خاتم الأولياء ، فهو (صاحب المقام المحمود . . . وصاحب المغفرة) ، كما هو خاتم الأنبياء ؛ وعلى هذا يكون المراد بالخاتم « الإنسان الكامل » ، ويشهد لهذا ما قاله صاحب الإنسان الكامل : «حيث وقع فى مؤلفاتى الإنسان الكامل ، فإنما أريد به محمد» . ثم قال : «وللانسان الكامل ثلاثة برازخ ، وبعدها المقام المسمى الخاتم » ؛ ولكنا إذا اعتبرنا الخاتم بمعنى الكامل لا الآخر — والمفروض أن الولاية قائمة إلى قيام الساعة — فكيف يمكن أن يستقيم هذا فى خاتم الأنبياء ، وهل يجوز أن يبقى باب النبوة مفتوحا ، كما أن باب

بالولاية ، وما يتعلق بها ، كما وضع ذلك الحكيم الترمذى :

يرى الحكيم الترمذى : أن الولاية ، وهى القربة إلى الله تعالى ، تعم المؤمنين ، قال تعالى : «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور» . وهناك ولاية خاصة ، وهذه درجات ومنازل؛ فمنها منزلة المحدثين ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن فيكم محدثين ، وإن منهم عمر »[1] ؛ وهم الذين اختارهم الله ، وقربهم إليه بالمناجاة والحديث ، وأنزل عليهم السكينة ، واختصهم بالاسم الخفى ، وجعل لهم التصرف فى الخلق بالحق .

ومن الولاية ولاية الأنبياء والمرسلين ، وهؤلاء يحملون فى نفوسهم الولاية فى الباطن بخواصها ، ولكنهم قد امتازوا بخاصة ، وهى الوحى والنبأ والرسالة ، وهو ظاهر النبوة . فكل نبى ولى ، وليس كل ولى نبيا ؛ وقد يخص الله وليا من أوليائه بشىء لا يوجد عند النبى ، ودليل ذلك قصة سليمان عليه السلام ورسوله ، قال تعالى : « فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . . . . » الآيات . فهذا خلق غير الأنبياء أحيط بما لم يحط به النبى .

والولاية أفضل من النبوة ، وذلك على معنى أن ولاية النبى أفضل من نبوته ، لأن نبوة التشريع متعلقة بمصالح الوقت ، والولاية لا تعلق لها بوقت ؛ والنبوة صفة الخلق دون الحق ، والولاية صفة الحق ، ولهذا يطلق على الله اسم الولى دون النبى . وقد كره القوم إطلاق القول فى ذلك بدون هذا التقييد .

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون (طبعة بيروت) ص ١٠٩ — ١١٠ .

فإنهم يقولون بأفضلية المسلم على غير المسلم ، ولـكن إذا كان الولى لا يفضل غيره ، فالنبى كذلك لا يفضل غيره ، وهذا كفر . والحشوية العوام يقولون بالتفضيل ، ولـكنهم ينكرون وجود مثل هذا النوع الآن ، و إن كان موجودا فى الماضى ، وهو إنكار أيضا . . .

والله تعالى جعل دلائل النبوة باقية إلى الوقت الحاضر ، وجعل الأولياء مظهرا لهذا المعنى ، علامة واضحة مستمرة على نبوة محمد . فجعل الأولياء حكام هذا العالم ، واختارهم لهذا العمل ، وجعلهم لا يتبعون آثار حواسهم ؛ فببركة حلولهم تمطر السماء ، و بنقاء حياتهم ينبت الزرع من الأرض ، وبدعائهم ينتصر المسلمون على الـكفار . وهم ليسوا معصومين من الذنب ، لأن ذلك للأنبياء خاصة ، ولـكنهم محفوظون من الفتنة بالولاية .

هذه هى أصول مذهب محمد بن على الحـكيم الترمذى ، وكذلك الجنيد وأبو الحسن النورى والحارث المحاسبى ، وغيرهم من أهل الحقائق .

واعلم أن شيوخ الصوفية بوجه عام ، يقولون إن الأوليـاء فى كل وقت وحال ، أقل رتبة من الأنبياء ، و إن الأنبياء أفضل من الأولياء ، لأن نهاية الولاية بدء النبوة ، وكل نبى ولى ، و بعض الأولياء ليسوا بأنبياء ، والأنبياء خالون دائما من الصفات الأنسانية ، والأولياء كذلك فى بعض الأوقات ؛ والحال عند الولى هو مقام عند النبى ، وما هو عند الأولياء مقام هو عند الأنبياء حجاب . هذه هى أصول أهل السنة والمتصوفة[1] » .

وفى ضوء هذا كله ، نستطيع أن نصل إلى النتائج الآتية ، فيما يختص

(١) كشف المحجوب للهجويرى (ترجمة نيكلسون) ص ٢١٠–٢٤١ .

الترمذى ، ولا تتعجل الحكم بتفضيل شرحه على ابن عربي ، فإنه مثل ابن عربى يكتب فى ضوء آرائه الخاصة ، ولم يفصل بعد فى مدى اتفاق أخباره مع الحقيقة ، وإن كان من الموثوق بهم ، وهذا بعض ما ذكره فى كتابه عن آراء الحكيم فى الولاية ، كتبها بعده بنحو ١٦٠ عاما :

قال الهجويرى : «فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ وإن اختلفت عباراتهم فى ذلك ؛ وكان محمد بن على الحكيم هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف ، وقد ألف الشيوخ كتبا فى هذا الموضوع ، ولكنها نادرة ، وليست فى متناول أحد ؛ وسأشرح لك أقوال هذا العالم الصوفى صاحب هذا الرأى ، حتى تنتفع بهذه الآراء ، وكذلك من يقع هذا الكتاب فى يده .

فاعلم أن الولى هو لفظ جار على ألسنة الناس وجاء فى القرآن وحديث الرسول . . .

فمن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصهم بصحبته ، واختارهم حكاما لملكه ، ومنحهم أنواع الكرامات ، وطهرهم من فساد الطبع ، ومن وساوس النفس والهوى ، وجمع أفكارهم فيه ، ومعرفتهم به ؛ كانوا فيما مضى ، وهم الآن كذلك ، وإلى ماشاء الله إلى يوم القيامة ، لأن الله فضلهم على غيرهم ووعد بحفظ دين محمد . ولما كانت أدلة النقل والعقل لهذا الدين هى عند العلماء ، فإن دلائل الرؤية والبصيرة إنما هى عند الأولياء والمختارين عند الله . ويخالفنا فى هذا الأمر فريقان ، وهم المعتزلة والحشوية ؛ فإما المعتزلة

(والله يسمى نفسه وليا) ؛ وإذا وصف بها الإنسان فإنما يعنى بها أولئك الذين تحققوا الوحدة به ؛ فهى أمر أعم من النبوة والرسالة ، وهما درجتان خاصتان منها ؛ كما أنها مقام دائم ، أما النبوة والرسالة فمؤقتتان ، والأنبياء والرسل بما فيهم من الولاية ، أكمل منهم بما فيهم من النبوة والرسالة ؛ ولم يزعم ابن عربى أن أى ولى كان أفضل منهم ، فجانب الولاية عند النبى والرسل أفضل من جانب النبوة والرسالة نفسها [١] » .

فإذا كان ابن عربى فى هذا المسألة ليس إلا شارحا لما كتبه الترمذى فى هذا الموضوع ، فإنه يكون واضحا أن الترمذى فى الحقيقة لا يفضل الولى على النبى ، مادام الأنبياء هم أولياء ، قبل أن يكونوا أنبياء ، وكل ماهناك أن النبى قد يكون فى طاقته كولى ، أقرب إلى الله بمعرفته الكاملة الصحيحة ، منه كنبى . على أن ابن عربى قد تخطى ما عند الترمذى ، فإنه يرى فى نفسه أنه خاتم الأولياء ، ولم يثبت عندنا أن الترمذى فعل ذلك ، وأغلب الظن أنه قد يرى أن محمدا خاتم الأولياء ، كما هو خاتم الأنبياء .

على أن هناك شارحا آخر لمبدأ الترمذى فى الولاية قبل ابن عربى ، وهو أبو عثمان الجلالى الهجويرى الفارسى (المتوفى بين سنة ٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م و بين سنة ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) فى كتابه الفارسى المشهور « كشف المحجوب » ، فقد عقد فصلا عن تعاليم الحكيمية ، أتباع الحكيم

---

(١) A. E. Afifi, The Mystical Philosophy of M. al-D. Ibn al-Arabi p. 94-5

لأمتى ؟ ١٥١ ـ آل محمد ؟ ١٥٢ ـ أين خزائن الحجة من خزائن الكلام من خزائن علم التدبير ؟ ١٥٣ ـ وأين خزائن علم الله من علم البدء ؟ ١٥٤ ـ وما تأويل أم الكتاب ، فإنه ادخرها فى جميع الرسل لهذا الرسول ولهذه الأمة ؟ ١٥٥ ـ وما معنى المغفرة التى قد غفر لنبينا عليه السلام وقد بشر سائر المرسلين بالمغفرة [1] » .

* * *

وقبل أن نبدى رأينا واستنتاجنا من هذا الثبت ، نرى أن نتعرف خاتم الولاية عند ابن عربى ، الذى وضع من غير شك كتاب الترمذى أمامه عند ما كتب ما كتبه ، على ألا ننسى فى الوقت نفسه أن ابن عربى فيما استعمله من رسالة الترمذى ، قد وجد الأصول الأولى لمبادئه ، ثم طور هذه المبادئ إلى مبادئه الخاصة ، وذلك معروف فى طريقة ابن عربى ، حيث كان يلم بأشتات الموضوعات المختلفة ، ويضم إلى طريقته مايلائمه منها ، ويزيد إلى ذلك مايريد . وأيا كان الأمر فابن عربى يرى أن «الولى» هو كلمة اصطلاحية ، تضم كل الرسل والأنبياء ؛ فالرسول عنده ولى عهد إليه فى تبليغ رسالة عن الله ، والنبى ولى متميز عن غيره من الأولياء ، بسبب خصوصية فيه ، وهى المعرفة ؛ فالولاية هى أساس كل المقامات الروحية ، وعنصرها الأول ؛ وأنها ـ كما أضاف ابن عربى ـ صفة ربانية

---

(١) فهرس كتاب خاتم الأولياء (مخطوطة إستانبول عمومية ٣٧٥٠) نقلا عن ماسنيون :

Recueil de Textes inédits p. 33-36, 253-254.

ينظر منهم ؟ ١٢٤ ـ و إلام نظر من الأنبياء عليهم السلام وكم إقباله على خاصته كل يوم ؟ ١٢٥ ـ و إلى ما ذا نظر من الأنبياء عليهم السلام ؟ (١٢٦ ـ ١٢٧) وما المعية ؟ فإنه مع الخلق ومع أصفيائه وأنبيائه وخاصته وكيف الفرق بين هؤلاء فى ذلك التفاوت ؟ ١٢٨ ـ وما ذكره الذى يقول : ولذكر الله أكبر ؟ ١٢٩ ـ اذكرونى أذكركم ؟ ١٣٠ ـ وما معنى الاسم ؟ ١٣١ ـ وما رأس الأسماء الذى استوجب منه جميع الأسماء ؟ ١٣٢ ـ وما الاسم الذى أبهم على الخلق إلا على خاصته ؟ (١٣٣ ـ ١٣٤) وبم نال صاحب سليمان ذلك وطوى عن سليمان وهو رسول من الرسل ؟ وما السبب فى ذلك ؟ ١٣٥ ـ ماذا اطلع الاسم : على حروفه أم على معناه ؟ ١٣٦ ـ وأين باب هـذا الاسم الخـفى عن الخلف بأبوابه ؟ ١٣٨ ـ وما كسـوته ؟ ١٣٨ ـ وما حرفه من حروف المعجم ؟ ١٣٩ ـ والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه ، فأين هذه الأسماء و إنما هى ٢٨ حرفا ، فأين هذه الحروف ؟ ١٤٠ ـ وكيف صار الألف مبتدأ الحروف ؟ ١٤١ ـ كيف كرر الألف واللام فى آخرها ؟ ١٤٢ ـ ومن أى حساب صار عددها ٢٧ حرفا ؟ ١٤٣ ـ وما معنى قوله خلق آدم على صورته ؟ ١٤٤ ـ ليتمنين اثنا عشر نبيا أنهم كانوا من أمتى ؟ ١٤٥ ـ وما تأويل قول موسى عليه السلام رب اجعلنى من أمة محمد ؟ ١٤٦ ـ قوله إن الله عبادا ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون بمقامهم وقربهم إلى الله ؟ ١٤٧ ـ وما تأويل قول بسم الله ؟ ١٤٨ ـ السلام عليك أيها النبى ؟ ١٤٩ ـ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؟ ١٥٠ ـ أهل بيتى أمان

جميع الوجوه ؟ ٧٨ ـ وما ذا تقدم إلى ربه من العبودية ، حتى يثنى عليه رب العزة ، ويشهد له بقدم الصدق ؟ ٧٩ ـ وبأى شىء يختمه حتى يناوله مفاتيح الكرم ؟ ٨٠ ـ وما مفاتيح الكرم ؟ ٨١ ـ وعلى من توزع عطايا ربنا ؟ ٨٢ ـ وما النبوة ؟ ٨٣ ـ كم أجزاء النبوة ؟ ٨٤ ـ كم أجزاء الصديقية ؟ ٨٥ ـ وما الصديقية ؟ ٨٦ ـ على كم تثبت العبودية ؟ ٨٧ ـ وما يقتضى الحق من الموحدين ؟ ٨٨ ـ وما الحق ؟ ٨٩ ـ وماذا بدؤه ؟ ٩٠ ـ وأى شىء فعله فى الخلق ؟ ٩١ ـ وبماذا وكل ؟ ٩٢ ـ وما ثمرته ؟ ٩٣ ـ وما المحق ؟ ٩٤ ـ وأين محل من يكون محقا ؟ ٩٥ ـ وما سكينة الأولياء ؟ ٩٦ ـ وماحظ المؤمنين ؟ ٩٧ ـ وماحظهم من كل شىء هالك إلا وجهه ؟ ٩٨ ـ كيف خص ذكر الوجه ؟ ٩٩ ـ وما مبتدأ الحمد ؟ ١٠٠ ـ وما قوله آمين ؟ ١٠١ ـ وما السجود ؟ ١٠٢ ـ وما بدؤه ؟ (١٠٣ ـ ١٠٧) وما قوله : العزة إزاري ، والعظمة ردائى ، وما الإزار ؟ وما الرداء ؟ وما الكبر ؟ ١٠٨ ـ وما تاج الملك ؟ ١٠٩ ـ وما الوقار ؟ ١١٠ ـ وما صفة مجالس الهيبة ؟ ١١١ ـ وما صفة ملك الآلاء ؟ ١١٢ ـ وما صفة ملك الضياء ؟ ١١٢ ـ وما صفات ملك القدس ؟ ١١٤ ـ وما القدس ؟ ١١٥ ـ وما سبحات الوجه ؟ ١١٦ ـ وما شراب الحب ؟ ١١٧ ـ وما كأس الحب ؟ ١١٨ ـ ومن أين ؟ ١١٩ ـ وما شراب حبه لك حتى يسكرك عن حبك له ؟ ١٢٠ ـ وما القبضة ؟ ١٢١ ـ ومن الذين استوجبوا القبضة حتى صاروا فيهم ؟ ١٢٢ ـ وما صنعه بهم فى القبضة ؟ ١٢٣ ـ وكم نظرته إلى الأولياء فى كل يوم ؟ وإلام كان

وما فطرته ؟ ٤٣ ـ وما الفطرة ؟ ٤٤ ـ لم سماه بشرا ؟ ٤٥ ـ وبأي شيء نال التقدمة على الملائكة حتى أمرهم بالسجود ؟ ٤٦ ـ وكم عدد الأخلاق الذي منحه عطاء ؟ ٤٧ ـ كم خزائن الأخلاق ؟ ٤٨ ـ إن لله مائة وسبعة عشر خلقا ، ماتلك الأخلاق ؟ ٤٩ ـ كم للرسل منها ، أي من هذه الأخلاق ؟ ٥٠ ـ كم لمحمد صلى الله عليه وسلم منها ؟ ٥١ ـ وأين خزائن المنن ؟ ٥٢ ـ وأين خزائن سعى النفوس ؟ ٥٣ ـ ومن أين تعطى للأنبياء ؟ ٥٤ ـ وأين خزائن المحدثين من الأولياء ؟ ٥٥ ـ وما الحديث ؟ ٥٦ ـ وما الوحى ؟ ٥٧ ـ وما الفرق بين المحدثين والأنبياء ؟ ٥٨ ـ وأين مكانهم ؟ ٥٩ ـ وأين سائر الأولياء ٦٠ ـ وما حوض الوقوف ؟ ٦١ ـ وكيف صار أمره كلمح البصر ؟ ٦٢ ـ أمر الساعة كلمح البصر أو هو أقرب ؟ ٦٣ ـ وما كلام الله لعامة أهل الوقوف ؟ ٦٤ ـ وما كلامه للموحدين ؟ ٦٥ ـ وما كلامه للرسل ؟ (٦٦ ـ ٧١) ماحظوظ الأنبياء من النظر إليه ؟ وما حظوظ المحدثين ؟ وما حظوظ سائر الأولياء ؟ وما حظوظ العامة ، فإن للحظوظ منهم فى هذه الزيارة من التفاوت مالا يطيق له البشر وصفا ، وكما أن للجنة درجات فكذلك يوم الزيارة لهم درجات ؟ ٧٢ ـ فى الأخبار موجود أن الرجل منهم ينصرف بحظه من ربه ، فيذهل أهل الجنان عن نعيمهم اشتغالا بالنظر إليه ٧٣ ـ وما المقام المحمود ؟ ٧٤ ـ وبأي شيء ناله ؟ ٧٥ ـ كم بين حظ محمد صلى الله عليه وسلم و بين حظ غيره من الأنبياء عليهم السلام ؟ ٧٦ ـ ومالواء الحمد ؟ ٧٧ ـ و بأى شيء يثنى على ربه حين يستوجب لواء محمد الخاص من

الجواب المستقيم ، عما سئل عنه الترمذى الحكيم :

١ـ عدد منازل الأولياء ٢ ـ أين منازل أهل القربة ؟ ٣ ـ ومجالسهم حيث هم من خلف ذلك الحجاب ؟ وأين الذين حازوا ، والعساكر بأى شيء حازوا؟ ٤ ـ و إلى أين منتهاهم؟ ٥ ـ أين مقام أهل المجالس والحديث ؟ ٦ـ وكم عددهم؟ ٧ـ بأى شيء استوجبوا هذا على ربهم ؟ ٨ ـ وما حديثهم ونجواهم ؟ ٩ ـ بأى شيء يفتحون المناجاة، وبأى شيء يختمونها ؟ ١٠ـ وأى اسم منحه من أسمائه ؟ ١١ ـ وبما ذا يسألون وبما ذا يجابون ؟ ١٢ ـ وكيف يكون صفة سيرهم ؟ ١٣ـ ومن الذى يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة ؟ ١٤ـ بم وبأى صفة يكون ذلك المستحق لذلك ؟ ١٥ ـ ما سبب الخاتم وما معناه ؟ ١٦ ـ كم مجالس ملك الملك ؟ ١٧ـ أين مقام الرسل من مقام الأنبياء؟ ١٨ـ أين مقام الأنبياء من الأولياء؟ ١٩ ـ بأي شيء حظ كل رسول من ربه ؟ ٢٠ ـ ٢١ ـ أي شيء حظوظ الأولياء من أسمائه ؟ ٢٢ـ وأي شيء علم البدء؟ ٢٣ـ قول النبى عليه السلام : كان الله ولا شيء معه ٢٤ـ مابدء الأسماء ؟ ٢٥ـ مابدء الوحى ؟ ٢٦ـ مابدء الروح ؟ ٢٧ ـ مابدء السكينة ؟ ٢٨ـ ما العدل ؟ ٢٩ـ ما فضل بعض النبيين على بعض وكذلك الأولياء ؟ ٣٠ ـ خلق الله الخلق فى الظلمة ٣١ ـ ٣٢ وكيف صفة المقادير ؟ ٣٣ ـ وما سبب علم القدر الذي طوي عن الرسل فمن دونهم ؟ ٣٤ـ ولأي شيء طوي ؟ ٣٥ـ متى ينكشف لهم سر القدر ؟ ٣٦ أين ينكشف لهم ؟ ٣٧ ـ لمن ينكشف ؟ ٣٩ـ وما العقل الأكبر الذي قسمت العقول منه لجميع خلقه ؟ ٤٠ ـ صفة آدم ٤١ ـ وما توليته ؟

مبادئه :

أشرنا قبل في هذه المقدمة إلى قصة طرد الترمذى من بلده ؛ وقد ذكر لنا السبكى السبب فى هذا ، فقال : « قال أبو عبد الرحمن السلمى [١] : نفوه من ترمذ ، وأخرجوه منها ، وشهدوا عليه بالكفر ، وذلك بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية» وكتاب « علل الشريعة » ، وقالوا إنه يقول إن للأولياء خاتما ، كما أن للأنبياء خاتما ، وإنه يفضل الولاية على النبوة ، واحتج بقوله عليه السلام : يغبطهم النبيون والشهداء ، وقال : لولم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم . ثم جاء إلى بلخ ، فقبلوه بسبب موافقته إياهم على المذهب . ثم اعتذر السلمى عنه ببعد فهم الفاهمين .

قلت : ولعل الأمر كما زعم السلمى ، وإلا فما نظن بمسلم أن يفضل بشرا على الأنبياء عليهم السلام » [٢] .

ولعل كتاب ختم الولاية أوختم الأولياء ، هوكتاب « ختم الأنبياء »، الذى ورد ذكره عند حاجى خليفة بأنه تأليف مختصر [٣] ؛ ولما كان هذا الكتيب غيرموجود بأيدينا ، فلا يمكن أن نبدى رأيا جازما فيما تستحقه هذه المسأله الهامة ، التى أدت بالترمذى إلى مثل هذه النتيجة ؛ وكل ماهناك أن ابن عربى قد أتى بثبت عن رءوس الموضوعات التى تناولتها هذه الرسالة ، نجد من الخير أن نأتى بها على وجهها :

---

(١) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى ، (توفى ٤١٢ هـ ١٠٢١ م) صاحب طبقات الصوفية » وغيره . انظر مجلة كلية الآداب مجلد ٦ ، ص ٥٤ — ٦٦ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون (طبعة إستانبول ١٩٤١) ج ١ ص ٧٠٠ .

(١٦) منازل العباد فى العبادة ؛ نسختان : فى باريس ، وإستانبول .
(١٧) العقل والهوى ؛ نسختان فى باريس ، وإستانبول .
(١٨) المنهيات ، وكل ماوجد من حديث بانهى ؛ نسختان : فى باريس ، وإستانبول .
(١٩) الأمثال من الكتاب والسنة ؛ نسختان : فى باريس ، وإستانبول .
(٢٠) غور الأمور ؛ نسخة في إستانبول .
(٢١) مسألة فى الإيمان والإسلام والإحسان ؛ نسختان : فى ليبزج ، ومجموعة شستر بيتى
(٢٢) منتخبات من كتاب الصفاء ؛ نسخة فى مجموعة شستربيتى .
(٢٣) رسالتان بلا عنوان ، نسخة فى مجموعة شستربيتى .
(٢٤) المسائل المكنونة ؛ نسخة فى ليبزج .
(٢٥) كتاب إلى محمد بن الفضل ؛ نسخة فى ليبزج .
(٢٦) كتاب إلى بعض إخوانه ؛ نسخة فى ليبزج .
(٢٧) رسالة بلا عنوان .
(٢٨) مسألة لأهل مراتب القيامة ؛ نسخة فى ليبزج .
(٢٩) رسالة إلى محمد بن الفضل ؛ نسخة فى ليبزج .
(٣٠) المسائل التى سأله أهل سرخس عنها ؛ نسخة فى ليبزج .
(٣١) كتاب إلى ابن عثمان سعيد النيسابورى ؛ نسخة فى ليبزج .
(٣٢) المسائل الغضة ؛ نسخة فى ليبزج .
(٣٣) رسائل ؛ نسخة فى إستانبول ، ويمكن أن تحتوى على بعض الرسائل المتقدمة .
(٣٤) علل العبودية ، أو علل الشريعة ؛ نسختان : فى برلين ، والقاهرة .

(ب) الكتب المفقودة

(٣٥) ختم الولاية ، أو خاتم الأولياء . أو خاتم الأنبياء ، وأبوابه محفوظة فى كتاب : «الجواب المستقيم ، عماسئل عنه الترمذي الحكيم» . لمحيي الدين بن عربي . (راجع مابعد) .
(٣٦) آداب المريدين ، ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب .
(٣٧) كتاب عذاب القبر ، ذكره الهجويري فى كشف المحجوب .
(٣٨) كتاب النهج ، ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب .
(٣٩) كتاب التوحيد ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب .
(٤٠) تاريخ المشايخ ، ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب .
(٤١) كتاب العلوم ، ذكره الترمذى فى كتاب الأكياس والمغترين .
(٤٢) كتاب صفة القلوب ، ذكره فى كتاب أدب النفس وأحوالها وهيئة تركيبها .

مايظهر كان على معرفة بتركيب الجسم ، مما يدل على أنه درس شيئا من الطب ، ولعل ذلك السبب الذى من أجله سمى « الحكيم » .

مؤلفاته :

وقد حفظت المكتبات كثيرا مما كتبه أبو عبد الله ، وإن لم يطبع من هذا إلا النزر اليسير . وهناك ما ورد ذكره من كتب ورسائل لانعرف إلا أسماءها ، وهذه جملة كتبه ورسائله ، ماوجد منها بالفعل ، أو بالاسم . ويلاحظ أن أغلب هذه الكتب قصير ، وبعضها لايتجاوز صفحات :

(ا) الكتب الموجودة

(١) نوادر الأصول ، فى معرفة أخبار الرسول : مجموعة من الأحاديث ، طبعت فى إستانبول سنة ١٩٢٣

(٢) رياضة النفس ، أو كتاب الرياضة ، أو حقيقة الآدمية ، ثلاث نسخ فى دمشق ، وإستانبول ، ومجموعة شستربيتى .

(٣) أدب النفس ؛ نسختان : فى استانبول ، وشستربيتى .

(٤) مسائل التعبير ، نسخة فى ليبزج ، وقد نشرت فى Rivista Degli Studi Orientali 18 p. 320—3

(٥) كتاب الأكياس والمغترين ، نسخة فى المكتبة الظاهرية بدمشق .

(٦) جواب كتاب من الرى ؛ نسختان : بدمشق ، وليدن .

(٧) بيان الكسب ، نسخة بدمشق .

(٨) مسائل ؛ نسخة بدمشق .

(٩) كتاب الفروق ومنع الترادف ؛ نسختان فى إستانبول .

(١٠) شرح الصلاة ومقاصدها ؛ نسختان : فى إستانبول ، وباريس .

(١١) الحجج وأسراره ؛ نسخة فى باريس .

(١٢) الاختيارات ؛ نسخة فى باريس .

(١٣) الجمل اللازم معرفتها ؛ نسختان : فى باريس ، ومانشستر .

(١٤) عرش الموحدين ؛ نسختان : فى باريس ، وإستانبول .

(١٥) الأعضاء والنفس ، وفيه تفسير آيات عظيمة ؛ نسختان : فى باريس ، وإستانبول .

أسلوبه

جاء عند القشيرى أن أبا عبدالله قال : «ماصنعت حرفا عن تدبير ، ولا لينسب إلى شىء منه ، ولكن كان إذا اشتد على وقتى أتسلى به»[(١)]. وهذا القول يتفق إلى حد كبير مع ما كتبه الحكيم الترمذى ، فهى كتابة لا تقوم على أسلوب منتظم (System) ، بل هى أقرب ما تكون إلى إفاضة القول فى موضوع ، والاستطراد فيه، مع الاستدلال عليه بحجج من القرآن والحديث ، وتأويل ذلك تأويلا يتفق مع رأيه. ومثل هذا النوع من التأليف كثيرا مايسوده التكرار والاستطراد ، وهذه الخصيصة فى الاستطراد والتوسع فى الشرح، هى التى جعلت أسلوبه حرا طليقا، لا تعقيد فيه ولا غموض ، فإنه لم يجز لنفسه هذا التعقيد المقصود، الذى كان يلجأ اليه مثل أبى القاسم الجنيد وأمثاله من الصوفية الأولين، إذا ما استثنيا الحارث المحاسبى . وقد يكون السبب فى هذا ، أنه لم يتناول المسائل الميتافيزيقية أو الدينية العميقة، ولكنه قصر نفسه على المسائل التعليمية والخلقية، وأيا كان الأمر ، فإنه لم يصلنا من هذا النوع ما نستطيع أن نبنى عليه حكما ، وكل ما بأيدينا هو ما كتبه فى هذه الأمور العامة ، التى لا يدور حولها الجدال والمناقشة .

وأكثر اهتمام الحكيم الترمذى ، هو تبيين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنسانى ، وربط بعض ذلك ببعض ، وهو على

(١) القشيرى : ص ٢٦ .

٨٦٨ م[١]، ولكن هذا لايتفق مع ماجاء عند السبكى والذهبى ، من أنه طرد من ترمذ ، ورحل إلى نيسابور ، وأخذيدرس الحديث هناك فى سنة ٢٨٥ هـ = ٨٩٨م ، وأنه ذهب إلى بلخ ، واستقبل هناك بحفاوة ، لموافقته إياهم فى المذهب : «وأضاف الذهبى إلى ذلك أنه عاش نحوا من ثمانين عاما» .

وعلى أساس هذه المعلومات يمكن أن نستنتج أن أباعبدالله مات عند نهاية القرن الثالث الهجرى، وأقرب ما يكون أن ذلك كان فى حدود سنة ٢٩٦هـ = ٩٠٣م. أما ماذكره بعض المؤرخين المعاصرين ، من أنه مات فى سنة ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م ، فلايقوم على أساس صحيح[٢] .وقبره معروف الآن فى خرائب ترمذ القديمة ، يقول بارتولد : « ونجد بين الأبنية فى خرائب المدينة القديمة ، ضريح الولى أبى عبدالله محمد بن على الترمذى.

وهذا الضريح من المرمر الأبيض.وقد ذكر بوسلافسكى أن هذا الأثر لايفوقه «من حيث الصنعة والمادة» أى أثر آخر من الآثار القديمة ،التى عرفت حتى الآن فى هذه النواحى ،ولم يقم هذا الضريح معاصرو الترمذى ولايمكن أيضا أن يكون بناؤه قد حدث قبل القرن الرابع عشر الميلادى، بدليل الخط العربى النسخى الذى كتب على هذا القبر ، وهو خط هذا العصر . وقد جاء ذكر هذا القبر فى تاريخ تيمور[٣]» .

---

(١) انظر H. Ethe, Catalogue of the Persian Manuscripts in the India Office Library 1, Column 293, quoting Dara Shikuh, Safinat al awliya fol. 85.

(٢) Brockelmann, G. A. L. 1. p. 199.

(٣) Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion (tr. H. A. R. Gibb) p. 75—76

والطريقة ـ كما جاء عند أبى نعيم والقشيرى ـ أبو تراب عسكر بن حاصن النخشبي (توفى سنة ٢٤٥ هـ = سنة ٨٥٩) [١] وأبو حامد أحمد ابن خضرويه البلخى (توفى سنة ٢٤٠ هـ = سنة ٨٥٤ م وعمره ٩٥ عاما) [٢] وأبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء .

وقد سماه الذهبى « المحدث » ، ومن هذه التسمية ومن تتبع أحاديثه وشيوخه الذين حدث عنهم ، وأكثرهم موثوق به ، نستطيع أن نتبين أن أبا عبدالله اشتغل بالحديث والرواية ، واهتم بذلك كعادة أهل زمنه ، ولكنه لم يمعن فى هذه الناحية من العلم ؛ ومع ذلك فقد بقيت آثار واضحة من ذلك فيما كان يكتب فى التصوف ، حيث كان يدعم بما عرفه من الأحاديث الحكمية الصوفية ، آراءه فى التربية والطريقة ، وإن كانت هذه الأحاديث لاتقوم عند ناقدى الحديث .

وقد ذكرنا فريد الدين العطار ، أن أبا عبدالله تزوج وأنجب أولادا ، ويقص علينا هذه القصة : وهى أن أولاده سئلوا كيف كان حال أبيهم عند ما يغضب ؟ فقالوا : إننا نعرفه عند ما كان يغضب ، فإنه يكون أكثر حنانا وأشد عطفا ، كان يكف عن الطعام والشراب ، وينتحب ويقول : « يامولاى ، كيف أغضبتك حتى جعلتهم يغضبوننى ، تبت إليك يامولاى ، فأصلح حالهم .

وقد ذكر بعض المؤرخين لوفاة أبى عبد الله أنها كانت فى سنة ٢٥٥ هـ

---

(١) الرسالة القشيرية : ص ٢٠ ؛ وحلية الأولياء : ج ١٠ ص ٢٢٠ .
(٢) الرسالة القشيرية : ص ١٩ .

وقد جاء عند السبكى ، أنه درس الحديث على جماعة من محدثى خراسان والعراق ، فذكر أباه (وهو مايضعف رواية العطار بأن أبا عبد الله عاش يتيما) وقتيبة بن سعيد ، وصالح بن عبدالله الترمذى ، وصالح بن محمد الترمذى ، وعلى بن حجر السعدى ، ويعقوب الدورقى ، وسفيان ابن وكيع [١] . وذكر الذهبى ما يماثل ذلك عن شيوخه ، وزاد الحسن ابن عمر بن شقيق ، ويحيى بن موسى ، وعتبة بن عبد الله المروزى ، وعباد بن يعقوب الرواجينى [٢]

وإذا تتبعنا شيوخه الذين جاء ذكرهم في هاتين الرسالتين : رياضة النفس ، وأدب النفس ، وروى عنهم أحاديثه ، نجدهم هكذا : أبوه روى عنه أكثر من مرة ، حيث يقول : وحدثنا بذلك أبى رحمه الله ، وفى هذا ما يبطل ماذكره العطار ، من أن والده مات وهو صغير ؛ وعبد الجبار ابن العلاء ، وسفيان بن وكيع ، وقتيبه بن سعيد ، والفضل بن محمد ، وعلى ابن حجر ، والجارود بن معاذ ، وإسماعيل بن نصر ، وإبراهيم بن المستمر البصرى ، وعمر بن أبى عمر ، وأبو بكر بن سابق الأموى ، وعبدالكريم ابن عبد الله ، وعبد الله بن أبى زياد ، ومحمد بن سهل ، وصالح بن محمد .

ومن تلامذته الذين رووا عنه الحديث : يحيى بن منصور القاضى ، والحسن بن على ، وغيرهم من محدثى نيسابور ؛ وممن صاحبوه فى التصوف

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) تذكرة الحفاظ : ج ٢ ص ١٩٧ .

وهو خبر سنبين خطأه فيما بعد ، وقص لنا هذه القصة : « ذلك أنه كان عقد النية فى أول أمره على الرحلة لطلب العلم فى رفقة اثنين من إخوانه ؛ وفى أثناء ذلك مرضت أمه ، وقالت له : يابنى إنى امرأة ضعيفة ، لاعائل لى ، ولا معين يعينى ، و إنك المتولى لأمرى ، فإلى من تكلنى وتذهب ؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه ، وعدل عن الرحلة ، ومضى زميلاه فى سبيلهما . ثم مضى على ذلك بعض الوقت . فبينما كان فى إحدى المقابر يبكى بكاء شديدا و يقول : هاأناذا قد بقيت جاهلا مهملا ، وسيرجع أصحابى وقد حصلوا على العلم ، إذا به يرى أمامه فجأة شيخا مشرق الوجه ، فسأله الشيخ عن سر بكائه ، فأفضى إليه بحاله ، فقال له الشيخ : ألا أعلمك فى كل يوم شيئا من العلم ، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك ؟ فأجابه إلى ذلك ، واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم ؛ ومضت على ذلك أعوام . ثم عرف بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام ، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه . « وأضاف العطار إلى ذلك ، راويا عن أبى بكر الوراق[1] ، أن الخضر كان يأتيه ليعلمه كل يوم أحد ، حيث كانا يتذاكران العلم ، و يتجاذبان الحديث » .

فهذه القصص وأمثالها إنما هى أقرب إلى صنع الخيال منها إلى الحقيقة ؛ ومع ذلك فقد تحتوى على مواد فى ثناياها ، لها قيمة فى تكوين صورة عن حياته ، مادامت تعوزنا المعلومات الموثوق بها .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق الترمذى البلخي . انظر القشيرى فى الرسالة : ص ٣٦ ؛ وأبا نعيم الأصفهاني فى حلية الأولياء : ج ١٠ ص ١٣٧ .

مختلفة ؛ حيث كان الطريق الرئيس الذى يربط بلاد الصين وبلاد فارس مخترقا بلاد الهنـد ؛ وهنا تلاقت الأديان والثقافات المختلفة ، فنجد المجوسية بجانب البوذية ، بجانب أديان الهند وثقافاتها ؛ ومن هذه الجهات شقت النسطورية طريقها إلى الصين ، ومنها انتشرت المانوية فى الشرق ؛ كما كانت مجالا للغزو اليونانى ، فبلخ هى بكترا اليونانية Bactria ، فكل هذه العناصر المختلفة كان لها من غير شك أثر فى تطور التصوف الإسلامى فى أول الأمر ، وكل هذا قد يساعد على تعرف عناصر التصوف ونشأته ، الأمر الذى يعنى به العلماء في العصر الحاضر .

حياة الترمذى :

ولا يعطينا المؤرخون الموثوق بهم ، أو الكاتبون القدامى عن التصوف ، إلا مادة قليلة ، ومعلومات مقتضبة ، عن حياة أبى عبد الله الترمذى ؛ فلا نجد فيها شيئا سوى أسماء شيوخه ، وسوى خبر نفيه من ترمذ ؛ وتركوا ذلك إلى القصص والأخبار ، التى نجدها عند المتأخرين من كتاب الفرس الذين كتبوا عن الصوفية ؛ وهى مع استحقاقها للنظر ، لا يمكن أن تقبل بدون مناقشة وتمحيص .

فمن هؤلاء فريد الدين العطار الشاعر الفارسى المعروف ، الذى قيل إنه مات وعمره مائة وخمس عشرة سنة فى سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م ؛ فقد روى فى كتابه « تذكرة الأولياء » أن أبا عبد الله فقد والده وهو صغير[١] ؛

(١) تذكرة الأولياء (طبعة نيكلسون) : ج ٢ ص ٩١ — ٩٢

التأثيرات الأجنبية فى التصوف الإسلامى ، قد ترجع إلى هذه الأديان والثقافات ، التى كانت تسود فى هذه النواحى الشرقية ، وإذا مارجعنا إلى الدلائل التاريخية ، وأحصينا أعلام الصوفية القدامى ، نجد أن أكثرهم ينتسب إلى هذه الأصقاع . ففى أثناء القرن الثانى الهجرى ، نجد — تبعا لما ذكره القشيرى — أن شيوخ الصوفية الذين توفوا فى هذا القرن أربعة : أحدهم ، وهو داود بن نصير الطائى ، عربى الأصل ، والثلاثة الباقون خراسانيون ، وهم : إبراهيم بن أدهم الذى يعتبر أبا التصوف الإسلامى ، من بلخ ، والفضيل بن عياض ولد فى مرو أو سمرقند ، ثم شقيق البلخى من بلخ ، وإذا ما تقدمنا إلى النصف الأول من القرن الثالث ، نجد بجانب الشيوخ العراقيين وهم معروف الكرخى ، والحارث المحاسبى ؛ والشاميين ، وهم أبوسليمان الدارانى ، وأحمد بن أبى الحوارى ؛ ثم ذوالنون المصرى من مصر — نجد فى خراسان منصور بن عمار ، وبشرا الحافى ، وحاتما الأصم ، من مدرسة شقيق البلخى ، وتلميذه أحمد بن خضرويه ، وأباتراب النخشبىّ ، وفى النصف الثانى من هذا القرن نجد بجانب العراقيين : السرى السقطى والجنيد — يحيى بن معاذ الرازى ، وأبايزيد البسطامى ، والحكيم الترمذى .

ومن هذا الإحصاء الموجز عن شيوخ الصوفية الأولين ، يظهر لنا بوضوح أن أغلبهم كان من المشرق ، وهو الأمر الذى لايمكن أن يمر المؤرخ عليه مر الكرام ، إذا ماأراد تأريخ نشأة التصوف .

وقد كان المشرق قبل الفتح الإسلامى ملتقى هاما لثقافات وأديان

إن الشتاء عدو لا نقابله فارحل هديت وثوب الدفء مطروح[(١)]

وكانت ترمذ موطنا لعدد كبير من المحدثين والفقهاء ، منهم المحدث المعروف : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، صاحب الجامع والعلل ، وكتاب الشمائل ؛ وقد تلقى الحديث على الإمام أحمد بن محمد ابن حنبل ، والبخارى ، وأبى داود السجستانى ، ومات فى بوغ قريبا من ترمذ سنة ٢٧٠هـ = ٨٨٣م أو ٢٧٥هـ = ٨٨٨م أو ٢٧٩هـ = ٨٩٢[(٢)] م. وقد كان أبو عيسى معاصراً لأبى عبد الله ، وكانا من بلد واحد وهو ترمذ ، ودرسا وكتبا الحديث ، إلا أنه لم يصل إلينا ما يؤيد تلاقيهما أو تدارسهما الحديث ، ولا يعد هذا غريبا ، فإن أبا عيسى كان من أهل الحديث والسنة ، وكان أبو عبدالله من الصوفية ، وقد أظهر آراء أدت إلى إخراجه من بلده ، ومثل هذا من شأنه أن يبعد بين الرجلين .

المشرق والتصوف الإسلامى :

وقد لعبت هذه البلاد التى تقع فى الشمال الشرقى للدولة الإسلامية ، (خراسان وتركستان) دورا هاما فى الثقافة الإسلامية ، وكانت كما رجح بعض الكاتبين[(٣)] ، المهد الأول للتصوف ؛ وفى الواقع أن كثيرا من

(١) معجم البلدان طبعة ليبزج : (ج ١ ص ٨٤٤)

(٢) انظر A.J. Wensinck in Encyclopaedia of Islam Vol. 4 p. 796, Brockelmann, «Geschichte der arabischen Litteratur, 1, 164, 199, Suppl. 1, 355—7.

(٣) انظر R; Hartmann, Der Islam Vol. 6 p. 31

لبلاد الفرس ، مجهول الإسم ، فى كتابه « حدود العالم » ، يصف ترمذ بأنها «مدينة زاهرة،وسوق ختلان وشغانيان،وأنها تنتج الصابون الجيد، والحصر المجدولة الخضراء ، والمراوح »[١] . وزعم المؤرخ الفارسى حافظ آبرو أن الإسكندر الأكبر قد أسس مدينة ترمذ ، وأنها كانت عند الفتح الإسلامى ـ كما جاء فى المصادر الصينية ـ مركزا للبوذية ، وكان بها اثنا عشر ديرا ، لزهاء ألف راهب ، وكان يحكمها ملك يدعى ترمذشاه ، ويحميها حصن قوى على ضفة النهر . وقد فتحها فى سنة ٧٠ هـ = ٦٨٩م موسى ابن عبدالله بن خازم ، واستمر على حكمها خمسة عشر عاما ، ثم خلفه بعد ذلك عثمان بن مسعود ، بأمر من المفضل بن المهلب حاكم الولاية[٢] .

وقد وصف ياقوت بن عبدالله الرومى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩م ترمذ بأنها «مدينة مشهورة،من أمهات المدن ، راكبة على نهر جيحون، من جانبه الشرقى ، متعلقة العمل بالصغانيان ، ولها قهندز وربط ، يحيط بها سور ، وأسواقها مفروشة بالآجر ، ولهم شرب يجرى من الصغانيان ، لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم .

وقال نهار بن توسعة يذم قتيبة بن مسلم الباهلى ، ويرثى يزيد بن المهلب :

هبت شمالا خريقا أسقطت ورقا ... واصفرّ بالقاع بعد الخضرة الشيح
فارحل هديت ولا تجعل غنيمتنا ... ثلجا تصفقه بالترمذ الريح

---

(١) حدود العالم (ed. Minorsky) ص : ١١٤

(٢) W : Barthold in Encyclopaedia of Islam, Vol. p. 793

مقدمة

كان الحكيم الترمذى ، الذى ننشر له هاتين الرسالتين لأول مرة ، أحد أعلام الصوفية القدامى ، وشيخا من شيوخهم البارزين ، كان صاحب مدرسة صوفية عرفت « بالحكيمية » نسبة إليه ، و بقيت كتبه ورسائله أصولا معروفة فى الأدب الصوفي ، وأمهات فى التربية الدينية فى هذه الأوساط[1] ، وكثيرمنها لايزال مخطوطا كما سنبينه ، و بالرغم من هذا كله ، لايزال المعروف عن حياته قدرا يسيرا ، يحوطه كثير من الشك والإبهام ، حتى إننا لانعرف على وجه التحقيق وقت وفاته .

اسمه وموطنه :

واسمه ، كما جاء عند المؤرخين وأصحاب كتب الطبقات ، أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذى[2] . ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) بمدينة ترمذ ، وهى مدينة على ضفة نهر جيحون ، بإقليم ماوراء النهر ، وقد ذكر مؤلف جغرافى

---

(١) يقول أبو الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ بصدد كلامه على الكتب المعتمدة عند الصوفية : « وقد صنف لهم أبو عبد الله محمد بن على الترمذى كتابا سماه « رياضة النفوس » ، قال فيه . . . . » تلبيس إبليس : ص ٢١٠ .

(٢) الذهبى فى تذكرة الحفاظ : (ج ٢ ص ١٩٧) ، والسبكى فى طبقات الشافعية الكبرى : (ج٢ ص ٠٠) ، وأبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء : (ج ١٠ ص ٢٣٣) .

O.L. 12-22-54
2276
.907
.377

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الآداب الصوفية

al-Riyāḍah wa Adab al-nafs

كتاب الرياضة و أدب النفس

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

al-Tirmidhi

عنى بإخراجه

الدكتور ا. ج. آربري
أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن

الدكتور علي حسن عبد القادر
سكرتير المعهد الإسلامي الثقافي بلندن

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

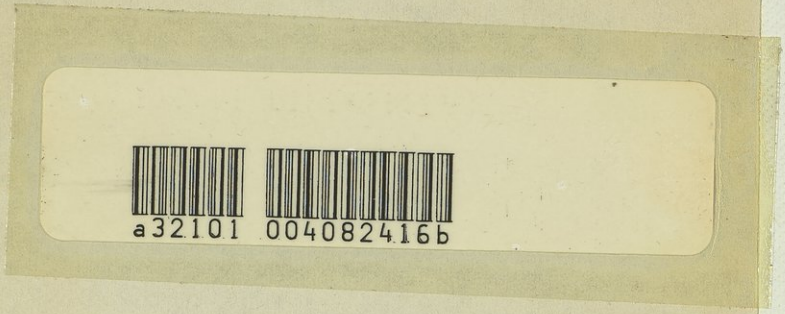
a32101 0040824166

2276
.907
.377

2276.907.377
al-Tirmidhi
...al-Riyadah wa Adab al-
nafs

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
APR			
XXXXXXX			
-1980			
RETURNE	'80		

al-Riyadah wa Adab al-nafs 6/6

مكتبة الآداب الصوفية

كتاب الرياضة و أدب النفس

للإمام أبي عبد الله محمد بن على بن الحسن الحكيم الترمذى

عنى بإخراجه

الدكتور ا. ج. آربرى
أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن

A. J. Arberry

الدكتور على حسن عبد القادر
سكرتير المعهد الإسلامى الثقافى بلندن

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر